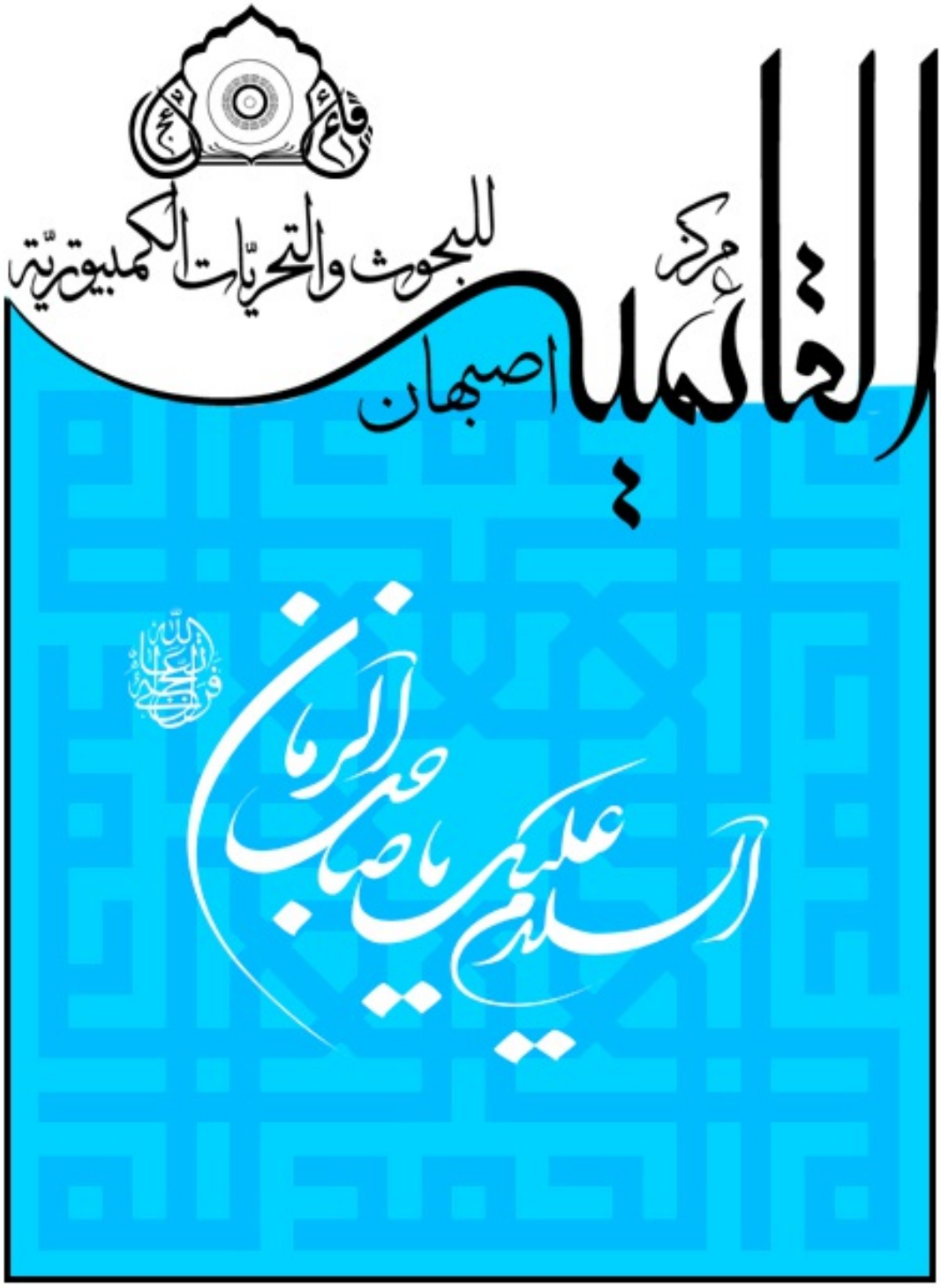

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

على مائدة العقيدة

١٠

صيانة الإنسان الإسلامية

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

صيانه الآثار الاسلاميه

كاتب:

جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
صیانه الاثار الاسلامیه ----- ۸
اشارة ----- ۸
اشارة ----- ۸
تقدیم ----- ۱۱
الآثار الإسلامیّة ونتائجها الإیجابیّة ----- ۱۴
الفصل الأوّل: الاستدلال بالآیات ----- ۲۲
الآیة الأُولی: الإذن برفعِ بیوتٍ خاصة ----- ۲۲
اشارة ----- ۲۲
ما هو المراد من الرفع؟ ----- ۲۹
الآیة الثانیة: اتّخاذ المساجد علی قبور المضطهدینفی سبیل التوحید ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
الرأی المسبق یضرب عرض الجدار ----- ۳۵
تقریر القرآن علیصحّة کلا الاقتراحین ----- ۳۶
الآیة الثالثة:صیانة الآثار الإسلامیة وتعظیم الشعائر ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
ما هو المقصود من شعائر اللّه؟ ----- ۴۲
الآیة الرابعة:صیانة الآثار ومودّة ذوی القربی ----- ۴۴
الفصل الثانی: من منظار القواعد الفقهیّة ----- ۴۵
الأصل فی الأشیاء الإباحة والحلّیة ----- ۴۵
الفصل الثالث: المشاهد والمقابر من خلال سیرة المسلمین فی خیر القرون ----- ۴۹
اشارة ----- ۴۹
۱- کلمة المسعودی فی حقّ قبور أئمة أهل البیت علیهم السلام ----- ۵۱

۲- کلمة ابن الجوزی: ۵۲
۳- کلمة الحافظ محمد بن محمود بن النجّار: ۵۲
۴- الرحّالة ابن جبیر والأبنیة علی المشاهد: ۵۲
اشارة ۵۲
مشهد رأس الحسین بالقاهرة: ۵۳
مشاهد الأنبیاء والصالحین فی مصر: ۵۳
مشاهد الصحابة فی مصر: ۵۶
مشاهد الفقهاء الکبار فی مصر: ۵۶
القباب الرفیعة لأهل البیت فی مکة المکرّمة: ۵۸
المشاهد المکرّمة ببقیع الغرقد: ۵۹
مشاهد الکوفة: ۶۰
قبور العلماء والأولیاء المشیّدة ببغداد: ۶۱
المشاهد المکرّمة والآثار المعظّمة فی الشام: ۶۲
ابن الحجاج والقبّة البیضاء علی قبر الإمام علی علیه السلام: ۶۹
الفصل الرابع: ذرائع الوهابیة فی هدم الآثار ۷۴
اشارة ۷۴
الأُولی: روایة أبی الهیاج الأسدی ۷۴
اشارة ۷۴
۱- وکیع: ۷۵
۲- سفیان الثوری: ۷۶
۳- حبیب بن أبی ثابت: ۷۷
۴- أبو وائل الأسدی: ۷۸
اشارة ۷۸
ضعف دلالة الحدیث ۷۸

الثانیة: دراسة حدیث جابر ---------- ۸۳

الثالثة: أحادیث ثلاثة فی المیزان ---------- ۸۷

تعریف مرکز ---------- ۹۱

صيانه الاثار الاسلاميه

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی، جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : صیانه الاثار الاسلامیه/ جعفر السبحانی

مشخصات نشر : ۱۳۷۵؟]. مشعر

مشخصات ظاهری : ص ۸۷

فروست : (علی مائده العقیده۱۰)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : عربی

یادداشت : کتابنامه به‌صورت زیرنویس

موضوع : آرامگاهها -- عربستان سعودی

موضوع : تمدن اسلامی -- حفظ و نگهداری

رده بندی کنگره : DS۲۱۱/س۲ص۹

رده بندی دیویی : ۹۵۳/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۶۱۴۲

ص:۱

اشارة

ص:۲

ص:۳

ص:۴

تقديم

قال اللَّه تعالى:

«فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَیُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». النور/ ۳۶

وقال عزّ من قائل:

«فَقَالَ ابْنُوا عَلَیْهِمْ بُنْیَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِینَ غَلَبُوا عَلَی أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَیْهِمْ مَسْجِداً» الکهف/ ۲۱

«لمّا قرأ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم قوله تعالی: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إلیه رجل قال: أیّ بیوتٍ هذه یا رسول اللَّه؟ قال: بیوت الأنبیاء، فقام إلیه أبو بکر وقال: یا رسول اللَّه وهذا البیت منها- مشیراً الی بیت علیٍّ وفاطمهٔ-؟ فقال النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

نعم، من أفاضلها». الدرّ المنثور ۶: ۲۰۳

ص:۵

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين وعليه وحده نتوكل

والحمد للَّهربّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيد رُسُله، وخاتم أنبيائه وآله ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعقيدة الصحيحة لأنّها تشكّل حجر الزاوية فى سلوكهم ومناراً يضىءُ دروبهم وزاداً لمعادهم.

ولهذا كرّسَ رسُولُ اللَّهصلى الله عليه و آله و سلم فى الفترة المكيّة من حياته الرسالية نفسه لإرساء أُسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها فى الفترة المدنيةصَرحَ النظامِ الأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى والسياسىّ.

ولهذا- ونظراً للحاجةِ المتزايدة- رأينا أن نقدّم للأُمةِ الإسلاميّة الكريمة دراسات عقائدية عابرة مستمدَّةٍ من كتاب اللَّهِ العزيز، والسُنّةِ الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتَّفق عليه علماءُ الأُمةِ الكرام، واللَّه الموفِّق.

معاونيّة التعليم والبحوث الإسلاميّة

ص:۶

ص:۷

الآثار الإسلاميّة ونتائجها الإيجابيّة

الأُمم الحيّة المهتمَّة بتاريخها تسعى إليصيانة كلّ أثر تاريخيّ لهصلة بماضيها، ليكون آيةً على أصالتها وعَراقتها فى العلوم والفنون، وأنها ليست نبتة بلا جذور أو فرعاً بلا أُصول.

والأُمة اليقظة تحتفظ بآثارها وتراثها الثقافيّ والصناعيّ والمعماريّ وما له علاقة بسابقها ممّا ورثته عن أسلافها،صيانةً لكيانها وبَرهنةً على عزّها الغابر.

وقد دعت تلك الغايةُ السامية الشعوبَ الحيّة لإيجاد دائرة خاصّة فى كلّ قطر لحفظ التراث والآثار: من ورقة مخطوطة، أو أثر منقوش على الحجر، أو إناء، أو منار، أو أبنية، أو قِلاع وحصونٍ، أو مقابر ومشاهد لأبطالهم وشخصيّاتهم الذين كان لهم دور فى بناء الأُمة وإدارة البلد وتربية الجيل، إلى حدّ يُنفقون فى سبيلها أموالًا طائلة، ويستخدمون عمّالًا وخُبراء يبذلون سعيهم فى حفظها وترميمها وصيانتها عن

ص:۸

الحوادث.

إنّ التراث بإطلاقه آية رُقيّ الأُمة ومقياس شعورها ودليل تقدّمها فی معترک الحياة.

والجدير بالذکر أنّ الشخصية البارزة إذا زارت بلداً وحلّت فيه ضيفاً، يجعل فی برنامجها زيارة المناطق الأثرية والمشاهد والمقابر العامرة التی ضمَّت جثمانَ الشخصيّات التی تنبضُ الحياة الراهنة بتضحياتهم ومجاهدتهم من غير فرق بين دولةٍ إلهيّة أو علمانيّة.

هذا هو موجز الکلام فی مطلق الآثار، وهَلُمَّ معی ندرس أهميّةصيانة الآثار الإسلامية التی ترکها المسلمون من عصر الرسول إلی عصرنا هذا فی مناطق مختلفة.

لا شکّ أنّ کلّ أثر يمتّ للإسلام والمسلمين بوجه من الوجوه بصلة، له أثره الخاصّ فی التدليل علی أنّ للشريعة الإسلامية وصاحبها حقيقة، وليست هی ممّا نسجَتْها يدُ الخيال أوصنعتها الأوهام.

وبعبارة واضحة: الآثار المتبقيّة من المسلمين إلی يومنا هذا تدلُّ علی أنّ للدعوة الإسلامية وداعيها واقعيّة لا تُنکر، وأنّه بُعِثَ فی زمن خاص بشريعة عالميّة، وبکتاب معجز تحدّی به الأُمم، وآمن به لفيف من الناس.

ثمّ إنّه هاجر من موطنه إلی يثرب، ونشر شريعته فی الجزيرة العربيّة، ثمّ اتّسعت بفضل سعی أبطالها ومعتنقيها إلی سائر المناطق، وقد قدّم فی سبيلها تضحيات، وتربّی فی أحضانها علماء وفقهاء وغير ذلک.

فهذه آثارهم ومشاهدهم وقبورهم تشهد بذلک.

ص:۹

فصيانةُ هذه الآثار على وجه الإطلاق تُضفى على الشريعة فى نظر الأغيار واقعية وحقيقة، وتزيل عن وجهها أىّ ريب أو شكٍ فيصحّة البعثة والدعوة، وجهاد الأُمّة ونضال المؤمنين.

فإذا كانت هذه نتيجةُ الصيانة، فإنّ نتيجة تدميرها وتخريبها أو عدم الإعتناء بها مسلَّماً عكس ذلك.

ومع الأسف نرى الأُمّة الإسلامية ابتُليت فى هذه الآونة بأُناس جعلوا تدميرَ الآثار وهدمها جزءاً من الدين، والاحتفاظ بها ابتعاداً عنه، فهذه عقليّتهم وهذا شعورهم، الذى لا يقلّ عن عقلية وشعور الصبيان، الذين لا يعرفون قيمة التراث الواصل إليهم عن الآباء، فيلعبون به بين الخرق والهدم وغير ذلك.

لا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصّة فى مهد الإسلام: مكة، ومهجر النبى الأكرمصلى الله عليه و آله: المدينة المنوّرة، نتائج وآثار سيّئة على الأجيال اللّاحقة التى سوف لا تجد أثراً لوقائعها وحوادثها وأبطالها ومفكّريها، وربّما تنتهى بالمآل إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضيّة مفتعلة، وفكرة مبتدعة ليس لها أىّ أساسٍ واقعى تماماً.

فالمطلوب من المسلمين أن يُكوِّنوا لجنة من العلماء من ذوى الاختصاص للمحافظة على الآثار الإسلامية وخاصة النبويّة منها، وآثار أهل بيته، والعناية بها وصيانتها من الاندثار، أو من عمليات الإزالة والمحو، لما فى هذه العناية والصيانة من تكريمٍ لأمجاد الإسلام وحفظ لذكريات الإسلام فى القلوب والعقول، وإثبات لأصالة هذا الدين، إلى جانب ما فى أيدى المسلمين من تراثٍ ثقافى وفكرى عظيم.

ص:۱۰

وليس فى هذا العمل أىُّ محذور شرعى، بل هو أمر محبَّذ، اتّفقت عليه كلمة المسلمين الأوائل كما سيوافيك.

فالسلف الصالح وقفوا- بعد فتح الشام- على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ .. فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أنْ يُهدم، وهكذا الحال فى سائر القبور المشيّدة بالأبنية فى أطراف العالم.

وإنْ كنت فى ريبٍ من هذا فاقرأ تواريخَهم، وإليك نصّ ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة فى قبيلة «لخم» النصرانيّة يقومون على حرم إبراهيم ب «حِبْرون» «(۱)» ولعلّهم استغلّوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم ... وربما يكون توصيف تميم الدارى أن يكون نسبة إلى الدار أى الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخميين فى الإسلام؛ لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذى قدّسه المسلمون تقديسَ اليهود والنصارى من قبلهم «(۲)».

وجاء أيضاً فى مادة «الخليل» يقول المقدسى- وهو أوّل من أسهب فى وصف الخليل-: إنّ قبر ابراهيم كانت تعلوه قُبّة بُنيت فى العهد الإسلامى.

ويقول مجير الدين: إنّها شُيّدت فى عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطّى بعضُه، وقبر يعقوب قباله، وكان المقدسى أول من أشار

۱- كلمة عبرية تعنى: مدينة الخليل.

۲- دائرة المعارف الإسلامية ۵: ۴۸۴ مادة تميم الدارى.

ص:۱۱

إلى تلك الهِبات الثمينة التى قدّمها الأُمراء الوَرِعون من أقاصى البلاد إلى هذا الضريح، إضافةً إلى الاستقبال الكريم الذى كان يلقاه الحجاج من جانب التميميين «(۱)».

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التى كانت مشيّدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام وما بناه المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان لجاء بكتاب فخم ضخم، ويَكشف عن أنّ السيرة الرائجة فى تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا كانت هى العناية بحفظ آثار رجال الدين، الكاشفة عن مشروعية البناء على القبور، وإنّه لم ينبس أىّ شخص فى رفض ذلك ببنت شفة ولم يعترض عليها أحد، بل تلقّاها الجميع بالقبول والرضا، إظهاراً للمحبّة والودّ لأصحاب الرسالات والنبوّات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنّة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» (النساء/ ۱۱۵).

اليوم وبعد مضىّ عشرين قرناً- تقريباً- على ميلاد السيد المسيح عليه السلام تحوّل المسيح وأُمّه العذراء وكتابه الانجيل وكذلك الحواريون، تحوّلوا- فى عالم الغرب- إلى أُسطورة تاريخية، وصار

۱- دائرة المعارف الإسلامية ۸: ۴۳۱.

ص:۱۲

بعض المستشرقين يشكِّكون- مبدئياً- فى وجود رجل اسمه المسيح وأُمّه مريم وكتابه الإنجيل، ويعتبرونه أُسطورة خيالية تشبه أُسطورة «مجنون ليلى».

لماذا؟

لأنّه لا يوجد أىّ أثر حقيقىّ وملموس للمسيح، فمثلًا لا يُدرى- بالضبط- أين وُلِد؟ وأين داره التى كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته- على زعم النصارى أنّه قتل-؟

أمّا كتابه السماوى فقد امتدّت إليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط إليه بصلة وليست له، بل هى ل «متّى» و «يوحنّا» و «مرقس» و «لوقا»، ولهذا ترى فى خاتمتها قصّة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح- كالشمس فى رائعة النهار- أنّها كتبت بعد غيابه.

وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين والمحقّقين أنّ هذه الأناجيل الأربعة إنّما هى من الكتب الأدبيّة التى يعود تاريخها إلى القرن الثانى من الميلاد.

فلو كانت الميزات الخاصّة بعيسى محفوظة، لكان ذلك دليلًا على حقيقة وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قِبَل المستشرقين ذوى الخيالات الواهية.

أمّا المسلمون، فهم يواجهون العالَم مرفوعىّ الرأس، ويقولون: يا أيّها الناس لقد بُعِثَ رجلٌ من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشرى، وقد حقّق نجاحاً باهراً فى مهمّته، وهذه آثار

ص:۱۳

حياته، محفوظة تماماً فی مكة والمدينة، فهذه الدار التی وُلد فيها، وهذا غار حراء حيث هبط إليه الوحی والتنزيل فيها، وهذا هو مسجده الذی كان يُقيم الصلاة فيه، وهذا هو البيت الذی دُفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذريّته وأوصيائه عليهم السلام.

والآن، إذا قَضينا علی هذه الآثار فقد قضينا علی معالم وجودهصلی الله عليه و آله ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيلَ لأعداءِ الإسلام ليقولوا ما يريدون.

إنّ هدم آثار النبوّة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة إليهم عليهم السلام وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم.

إنّ رسالة الإسلام رسالة خالدة أبديّة، وسوف يبقی الإسلام ديناً للبشرية جمعاء إلی يوم القيامة، ولابدّ للأجيال القادمة- علی طول الزمن- أنْ تعترف بأصالتها وتؤمن بقداستها.

ولأجلِ تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ- أبداً- علی آثارصاحب الرسالة المحمديةصلی الله عليه و آله لكی نكون قد خَطَوْنا خطوة فی سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه علی مدی العصور القادمة، حتی لا يشكّك أحد فی وجود نبیّ الإسلامصلی الله عليه و آله كما شكّكوا فی وجود النبیّ عيسی عليه السلام.

لقد اهتمَّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبی محمدصلی الله عليه و آله وسيرته وسلوكه، حتی أنّهم سجّلوا دقائق أُموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيّته، وكلّ ما يرتبط بخاتمه، وحذائه، وسواكه، وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده، وإبله، وغلامه، وحتی الآبار التی شرب منها

ص:۱۴

الماء، والأراضى التى أوقفها لوجه اللّه سبحانه، والطعام المفضّل لديه، بل وكيفية مشيته وأكله وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية إلى يومنا هذا «(۱)».

هذه كلمة موجزة عن موقف الموضوع عند العقلاء عامة والمسلمين خاصّة، فهلمّ معى ندرس المسألة فى ضوء الكتاب والسنّة حتى تتجلّى الحقيقة بأعلى مظاهرها، وإنّصيانة قبور الأنبياء والأولياء والشهداء وتعميرها وتشييدها بقباب، هى ممّا دعا إليها الكتاب والسنّة النبويّة وسيرة المسلمين إلى أوائل القرن الثامن، عصر إثارة الشكوك حول هذا الموضوع وغيره، عصر ابن تيمية (۷۶۱- ۷۲۸ ه) الذى أثار تلك الفكرة لتفريق كلمة الأُمّة، وتلقّى ذلك بالقبول وارث منهجه محمد ابن عبد الوهاب النجدى (۱۱۱۵- ۱۲۰۶ ه)، إلى أن أحيا منهج شيخه بعد الاندراس بفضل سيف آل سعود، وحمايتهم له لغاية نفسانية لا تُنكَر.

وندرس الموضوع فى خلال فصول ولنقدِّم ما تدلّ عليه من الآيات.

جعفر السبحانى

۱- راجع طبقات الصحابة لابن سعد ۱: ۳۶۰- ۵۰۳ حول هذا الموضوع.

ص:۱۵

الفصل الأوّل: الاستدلال بالآيات

الآية الأُولى: الإذن برفعِ بيوتٍ خاصة

اشارة

إذا كان لصيانة الآثار الإسلاميّة ذلك التأثير الكبير الذى اتّضح للقارئ فى التقديم الماضى، فعلينا استنطاق كتاب اللّه حولَ هذا الموضوع حتى نقف على حكم اللّه فيه.

وسنشير هنا إلى الآيات ذات الصلة الواضحة بالموضوع، والتى لا تتجاوز عن أربع آيات:

قال سبحانه: «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (النور/ ۳۶- ۳۷).

وللمفسّرين حول هذه الآية بحوث، منها: تعيين متعلّق الظرف، أعنى قوله: «فِى بُيُوتٍ»، فهل هو متعلّق بما قبلها، أى قوله سبحانه فى الآية المتقدّمة عليها «كَمِشكوةٍ» أى المشكاة فى بيوت، أو هو متعلّق

ص:۱۶

بفعل مقدّر يدلّ عليه لفظ «يُسَبِّحُ» فى الآية، ولا مانع من التكرار، أو متعلّق بشىء آخر مثل قوله: سبّحوا فى بيوت؟

إنّ المهم بيان أمرين:

الأول: ما هو المراد من هذه البيوت التى أذن أن ترفع؟

الثانى: ما هو المراد من الرفع فيها؟

أمّا الأول، فالمفسّرون فيه على أقوال.

۱- المراد المساجد الأربعة.

۲- مطلق المساجد.

۳- بيوت النبىّ.

۴- المساجد وبيوت النبىّ.

استفدنا هذه الأقوال من المصادر «(۱)»، والمهم تعيين المراد منها وفق الموازين الصحيحة فى تفسير الآية.

۱- إنّ القولين: الأول والثانى مبنيان على صحّة إطلاق البيت على المسجد، ولوصحّ ذلك لغة- ولن يصحّ كما سيوافيك- إلّاأنّه إطلاق شاذ، لا يصحّ تفسير القرآن بالاستعمال الشاذ، وذلك لأنّ البيت فى القرآن غير المسجد، فالمسجد الحرام غير بيت اللّه الحرام الذى جعله اللّه قياماً للناس «(۲)».

۱- الطبرى، التفسير، ۱۸: ۱۱۱ - ۱۱۲؛ السيوطى ۶: ۲۰۳؛ الزمخشرى، الكشاف ۲: ۳۹۰؛ الرازى، التفسير ۲۴: ۳؛ القرطبى، الجامع لأحكام القرآن ۱۲: ۲۶۶؛ ابن كثير، التفسير ۳: ۲۹۲؛ اسماعيل حقى البرسوى، روح البيان ۲: ۱۵۸؛ القاسمى، محاسن التأويل ۷: ۲۱۳؛ صديق حسن خان، فتح البيان ۶: ۳۷۲؛ أبو حيان، البحر المحيط ۶: ۴۵۸.

۲- المائدة: ۹۷.

ص:۱۷

۲- إنّ البيت لا ينفكّ عن السّقف لقوله تعالى: «وَقَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِیَّةِ» (الأحزاب/ ۳۳)، وقال سبحانه: «وَلَوْلَا أَنْ یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَیْهَا یَظْهَرُونَ» (الزخرف/ ۳۳)، وقال سبحانه: «فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خَاوِیَةً بِمَا ظَلَمُوا» (النمل/ ۵۲).

فهذه الآيات تدلّ على أنّ البيت لا ينفكّ عن السقف، بخلاف المساجد فإنّها ربما تكون مكشوفة بلا سقف، وهذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً بلا سقف، ومعه كيف يمكن تفسير البيوت بالمساجد؟

۳- إنّ سورة النور التي وردت فيها هذه الآية تعتني بشأن البيوت عامة، ويقول سبحانه: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَی أَهْلِهَا ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِیهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّی یُؤْذَنَ لَکُمْ وَإِنْ قِیلَ لَکُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْکَی لَکُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ مَسْکُونَةٍ فِیهَا مَتَاعٌ لَکُمْ وَاللَّهُ یَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَکْتُمُونَ» (النور/ ۲۷- ۲۹) فقد تكرّر في هذه الآيات ذكر البيوت ظاهراً ومستتراً سبع مرّات.

ثمّ إنّه سبحانه يسترسل في ذكر البيوت في الآية (۶۱) ويقول:

«لَیْسَ عَلَی الْأَعْمَی حَرَجٌ وَلَا عَلَی الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَی الْمَرِیضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَی أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ آبَائِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أُمَّهَاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أخوانِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخَوَاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَعْمَامِکُمْ أَوْ بُیُوتِ عَمَّاتِکُمْ أَوْ بُیُوتِ أَخْوَالِکُمْ أَوْ بُیُوتِ خَالَاتِکُمْ أَوْ مَا مَلَکْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْصَدِیقِکُمْ لَیْسَ

ص:۱۸

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (النور/ ۶۱) فقد ذكر فيها البيوت عشر مرّات.

فالآيةُ قيدَ البحث وقعت بين هاتين الطائفتين من الآيات، أفيصحُّ لنا أن نفسّر قوله «فِي بُيُوتٍ» بالمساجد مع هذه الآيات الكثيرة التى تضمّنت استعمال البيت قبال المسجد؟

۴- إنّ من يُفسّر البيوت بالمساجد يعتمد على روايةٍ موقوفةٍ لابن عباس ومجاهد، لكنّها لا تقاوم ما ورد مسنداً عن النبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله:

روى الحافظ السيوطى قال: أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة: أنّ رسول اللَّه قرأ هذه الآية «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إليه رجل قال: أىّ بيوت هذه يا رسول اللَّه؟ قال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول اللَّه وهذا البيت منها- مشيراً إلى بيت على وفاطمة- فقال النبى صلى الله عليه و آله: «نعم ومن أفاضلها» «(۱)».

ولأجل رجحان الحديث المسند على الموقوف، قال الآلوسى فى تفسيره بعد نقل الحديث: وهذا إنصحّ لا ينبغى العدول عنه «(۲)».

ولأجل بعض ما ذكرنا قال أبو حيان: الظاهر أنّ البيوت مطلق يصدق على المساجد والبيوت التى تقع الصلاة فيها وهى بيوت الأنبياء «(۳)».

۱- السيوطى، الدرّ المنثور ۶: ۲۰۳.

۲- الآلوسى، روح المعانى ۱۸: ۱۷۴.

۳- أبو حيان، البحر المحيط ۶: ۴۵۸.

ص:۱۹

وقد روى عن الإمام أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين عليه السلام: أنّ المقصود بيوت الأنبياء وبيوت علىّ عليهم السلام «(۱)».

۵- إنّ القرآن الكريم يعتنى ببيوت النبى وأهلها، يقول سبحانه:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» (الأحزاب/ ۵۳) ويعتنى بأهلها ويقول: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب/ ۳۳).

۶- وإذا راجعنا اللغة: نرى أنّ أصحاب المعاجم يفسّرونه على وجه لا ينطبق على المسجد، يقول الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، لأنّه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظلّ بالنهار، ثمّ قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت للمسكن أخصّ والأبيات بالشعر «(۲)».

وقال فى اللسان: البيت معروف، وبيت الرجل داره، وبيته قصره، ومنه قول جبرئيل عليه السلام: بشّر خديجةَ ببيتٍ من قصب، أراد: بشّرها بقصر من لؤلؤة مجوّفة أو بقصر من زمردة «(۳)».

فهذه القرائن لو تدبّر فيها المفسّر لأذعن أنّ المراد من «بُيُوتٍ» غير المساجد، سواء أُريد منه المسجد الحرام ومسجد النبى والمسجد الأقصى ومسجد قبا، أو أُريد مطلق المساجد.

۷- أضف إلى ذلك أنّ تفسير البيوت بالمساجد مروى عن كعب

۱- البحرانى، البرهان ۳: ۱۳۷.

۲- الراغب، المفردات: ۶۴ مادة بيت.

۳- ابن منظور، اللسان ۲: ۱۴ مادة بيت.

ص:۲۰

الأحبار، ذلك الحبر اليهودى الذى أدخل الإسرائيليّات فى السنن والأحاديث، روى ابن كثير قال: قال كعب الأحبار: مكتوب فى التوراة أنّ بيوتى فى الأرض المساجد «(۱)»، ولوصحّ أنّ ابن عباس أخذه عن كعب الأحبار كما يدّعيه علماء الرجال فى ترجمة كعب الأحبار فلعلّه أخذ منه، ومرويّات كعب إسرائيليّات لا يصحّ الاحتجاج بها.

غير أنّه ما تضافر عن النبى الأكرم خلاف ذلك، حيث قال:

«جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» «(۲)»، فإذا كان جميع الأرض مسجداً للّه تبارك وتعالى فيكون جميعها معبداً ومسجداً.

۸- وربّما يتصوّر أنّ ذيل الآية الذى جاء فيه قوله «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» قرينة على أنّ المراد من البيوت هى المساجد، ولكنّه غَفِلَ عن أنّ شأن بيوت الأنبياء والأولياء والصالحين، شأن المساجد، فهم فيها بين قائم وراكع وساجد وذاكر.

وقد اعتنى النبىّ الأكرم بشأن البيوت، فقد عقد مسلم باباً فيصحيحه لاستحباب إقامة الصلاة النافلة فى البيت وروى فيه الروايات التالية:

أ- عن ابن عمر عن النبىّ (ص): «اجعلوا منصلاتكم فى بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً».

ب- عن ابن عمر عن النبى (ص): «صلّوا فى بيوتكم ولا

۱- ابن كثير، التفسير ۳: ۲۹۲.

۲- البخارى، الصحيح ۱: ۹۱ كتاب التيمم، ح ۲؛ البيهقى، السنن: ۴۳۳ باب أينما أدركتكالصلاة فصلّ فهو مسجد.

ص:۲۱

تتّخذوها قبوراً».

ج- عن جابر قال: قال رسول اللَّه (ص): «إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً منصلاته فإنّ اللَّه جاعل فى بيته منصلاته خيراً».

د- عن أبى موسى عن النبى (ص): «مثل البيت الذى يذكر اللَّه فيه والبيت الذى لا يذكر اللَّه فيه مثل الحىّ والميّت».

ه- وعن زيد بن ثابت فى حديث: «فعليكم بالصلاة فى بيوتكم فإنّ خيرصلاة المرء فى بيته إلّاالصلاة المكتوبة» «(۱)».

و- روى أحمد أنّ عبد اللَّه بن سعد سألَ رسول اللَّه وقال: أيّما أفضل: الصلاة فى بيتى أو الصلاة فى المسجد؟ فقال: «فقد ترى ما أقرب بيتى من المسجد، ولأن أُصلّى فى بيتى أحبّ إلىّ من أن أُصلّى فى المسجد إلّاأن تكونصلاة مكتوبة» «(۲)».

فهذه القرائن المؤكدة ترفع الستار عن وجه المعنى، فإنّ المراد من الآية هو بيوت الأنبياء وبيوت النبىّ الأكرمصلى الله عليه و آله وبيت علىّ عليه السلام وما ضاهاها، فهذه البيوت لها شأنها الخاصّ؛ لأنّها تخصُّ رجالًا يُسبّحونه سبحانه ليلًا ونهاراً، غُدُواً وآصالًا، تعيش فيها رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقلوبهم مليئة بالخوف من يوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

۱- مسلم، الصحيح ۲: ۱۸۷- ۱۸۸ باب استئجار صلاة النافلة فى البيت.

۲- أحمد، المسند ۴: ۳۴۲.

ص:۲۲

ما هو المراد من الرفع؟

قد تعرّفت على المقصود من البيوت، فهلمّ معى ندرس معنى الرفع، ومن حسن الحظّ أنّ المفسّرين لم يختلفوا فيه اختلافاً موجباً لغموض المعنى، وذكروا فيه المعنيين التاليين:

الأول: إنّ المراد من الرفع هو البناء، بشهادة قوله سبحانه: «ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» (النازعات/ ۲۸)، وقوله سبحانه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ ...» (البقرة/ ۱۲۷).

الثانى: إنّ المراد هو تعظيمها والرفع من قدرها، قال الزمخشرى:

رَفْعُها: إمّا بناؤها، لقوله تعالى: «رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» و «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ...» أمر اللّه أن تُبنى، وإمّا تعظيمها والرفع من قدرها «(۱)».

وقال القرطبى: ترفع: تُبْنى وتعْلى «(۲)».

وقال اسماعيل حقى البرسوى: أن ترفع: بالبناء، والتعظيم ورفع القدر «(۳)».

وقال حسنصدّيق خان: المراد من الرفع، بناؤها «أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» ورفع ابراهيم القواعد من البيت، وترفع أى تعظّم وتطهر من الأنجاس عن اللغو ولها مجموع الأمرين «(۴)»، إلى غير ذلك من الكلمات المتشابهة، ولا حاجة إلى ذكرها، إنّما المهم بيان دلالة الآية وتحقيقها.

۱- الزمخشرى، الكشاف ۲: ۳۹۰ بتصرّف يسير بإضافة كلمة« أما».

۲- القرطبى، جوامع الأحكام ۱۲: ۲۶۶.

۳- اسماعيل حقى البرسوى، روح البيان ۶: ۱۵۸.

۴- صديق حسن خان، فتح البيان ۶: ۳۷۲.

ص:۲۳

قد عرفت أنّ المراد من البيوت هو بيوت الأنبياء والعترة والصالحين منصحابة النبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله، فالآية تأذن أن تُبنى هذه البيوت بناءً حسياً وترفع من قدرها رفعاً معنوياً، فهنا نستنتج من الآية أمرين:

١- أنّ المراد من رفع البيوت ليس إنشاؤها، لأنّ المفروض أنّها بيوت مبنيّة، بل المراد هوصيانتها عن الاندثار، وذلك كرامة منه سبحانه لأصحاب هذه البيوت، فقد ترك المسلمون الأوائل بيوتاً للرسول الأكرم والعترة الطاهرة وللصالحين منصحابته وحرستها الدول الإسلامية طيلة أربعة عشر قرناً، فعلى المسلمين قاطبة والدول الإسلاميّة عامّة بذل السعي فيصيانتها عملًا بالآية المباركة، والحيلولة دون تهديمها بحجّة توسعة المسجد النبوى أو المسجد الحرام.

ولكن من سوء الحظّ، أو من تسامح الدول فى ذلك المجال أن هُدّمت هذه البيوت ودمّرت بمعاول الوهابيين، ومن هذه البيوت بيت الحسنين والصادقين عليهم السلام فى محلّة بنى هاشم، فلا ترى لها أثراً، كما لا ترى من بيت أبى أيوب الأنصارى مُضيِّف النبيّ الأكرم أثراً، ومثلها مولد النبى فى مكة المكرّمة وغيرها.

فعلى المسلمين مسؤولية إعادة هذه الأبنية فى أماكنها عملًا بالآية ورفع قدرها مهما أمكن، ولئنصارت الإعادة أُمنية لا تُدرَك، مادام السيف على هامة المسلمين فى أرض الوحى والتوحيد، لكنصيانةُ ما بقى منها فى مختلف الأقطار أمرٌ ممكن.

٢- أنّ قسماً من البيوت فى المدينة المنوّرة مقابر ومشاهد

ص:۲۴

لهؤلاء، فقد دُفن النبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله فى بيته.

كما أنّ بيت العسكريين يعنى الإمام علىّ الهادى والحسن العسكرى فى سامرّاء بمثابة مقابرهما ومشاهدهما، فليس لأحد قلعها بمعاول الجور باسم التوحيد، وأىّ توحيد أعلى وأجل ممّا دعا إليه الذكر الحكيم الذى يأمر بصيانة بيوت هؤلاء مطلقاً، سواء كانت مقابرهم أمْ لا.

باللَّه عليك أيّها القارئ الكريم هل زرتَ بقيع الغرقد مراقدَ الأئمة والصحابة وزوجات النبى والشخصيّات الإسلاميّة الكبيرة، وهل شاهدت قيام الحكومة بواجبها من رفع قدره وتنظيف أرضه، أم شاهدت النقيض من ذلك؟ وقد كانت بعض هذه القبور بيوت الصحابة، ولعمرى إنّ القلب ليحترق إذا رأى أنّ الوهابيين يتعاملون مع قبور أفلاذ كبد النبيّ وخيار أصحابه معاملة العدوّ مع العدوّ، ونعم من قال:

لعمرى أنّ فاجعة البقيع يشيب لهولها فُود الرّضيعِ

لقد خرجنا فى دراسة هذه الآية على نتيجة خاصة، وهى أنّصيانة بيوت الأنبياء والأولياء أمر ندب اللَّه سبحانه المسلمين إليه، سواء كان فيها قبر أوْ لا، وأنّ رفعها بالبناء وصيانتها عن الانطماس وتنظيفها عن الرجس واللغو عمل بالشريعة المقدّسة، حيثُ نزل به الوحى وسار عليه المسلمون فى جميع القرون.

ص:۲۵

الآية الثانية: اتّخاذ المساجد على قبور المضطهدين‌فی سبيل التوحيد

اشارة

يـذكر سـبحانه قصـة أصـحاب الكهف، وأنّهم اعتزلوا قومَهم للحفاظ على عقيدتهم ودينهم، حتى وافاهم الأجل وهم فی الكهف، وقد أعثر اللّه عليهم قوماً بعد ثلاثة قرون وأطلعهم عليهم، يقول سبحانه:

«وَكَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» (الكهف/ ۲۱).

ومعنى الآية أنّا أعثرنا على أصـحاب الكهف أهلَ المدينة ليعلموا أنّ وعد اللّه بالبعث حقّ، فإنّ بَعْثَ هؤلاء بعد لَبْثهم ثلاثمائة سنة دليل على إمكان الحياة الثانوية، ليعلموا أنّ الساعة لا ريب فيها.

ثمّ إنّ القوم الذين أعثرهم اللّه على أجسادهم اتّفقوا على تكريمهم، ولكن اختلفوا فی طريقة التكريم، كما يقول سبحانه: «إِذْ

ص:۲۶

يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، فظاهرُ المنازعة هو ما جاء بعد هذه الجملة بضميمة لفظة الفاء، فقال جماعة: «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً»، أى اجعلوا عليهم بنياناً كبيراً، ويدلّ على الوصف تنكير «بُنْيَاناً»، وقدصرّح الجوهرى وابن منظور بأنّ البنيان بمعنى الحائط «(۱)»، ولذلك فسّره القاسمى بقوله:

أى باب كهفهم بنياناً عظيماً كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبتيّة علىالأنبياء وأتباعهم «(۲)»، تسترأجسادهم وتعظّمأبدانهم، ربهم أعلم بهم.

ولكن قال آخرون الذين غلبوا على أمر القائلين بالقول الأول وصار البلد تحت سلطتهم «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» ومعبداً وموضعاً للعبادة والسجود يتعبّد الناس فيه ببركاتهم.

هذا هو الظاهر المستفاد من الآية.

قال الرازى: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم» قيل: المراد به الملك المسلم وأولياء أصحاب الكهف، وقيل: رؤساء البلد، «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» نعبد اللّه، وستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد «(۳)».

وقال أبو حيان الأندلسى: روى أنّ التى دَعت إلى البنيان ماتت كافرة، أرادت بناء مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً «(۴)».

۱- الجوهرى، الصحاح ۶: ۲۲۸ مادة بناء؛ وابن منظور، اللسان ۱: ۵۱۰ تلك المادة.

۲- القاسمى، محاسن التأويل ۷: ۲۱.

۳- الرازى، مفاتيح الغيب ۲۱: ۱۰۵.

۴- أبو حيان محمد بن يوسف ۶۵۴- ۷۵۴ ه، البحر المحيط ج ۶.

ص:۲۷

وقال أبو السعود (ت ۹۵۱): «وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم» وهم الملك والمسلمون «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» «(۱)».

وقال الزمخشرى فى الكشاف: «وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم» من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ليتّخذ على باب الكهف مسجداً يصلّى فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم «(۲)».

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة فى تفسير الآية، وكأنَّ الاتفاق موجود على أنّ القول بايجاد البنيان على باب الكهف كان لغير المسلمين، والقول ببناء المسجد على بابه قول المسلمين، والذى يدلّ على ذلك أمران:

الأوّل: إنّ اتّخاذ المسجد دليل على أنّ القائل كان موحّداً مسلماً غير مشرك، فأيّصلة للمشرك ببناء مسجد على باب الكهف، ولو كان المشركون يهتمّون بعمارة المسجد الحرام فلأجل أنّه أُنيطَ بالبيت كيانهم وعظمتهم فى الأوساط العربيّة، بحيث كان التخلّى عنها مساوقاً لسقوطهم عن أعين العرب فى الجزيرة كتكريمهم البيت الحرام.

أفبعدَ اتّفاق أكابر المفسّرين هل يصحّ لباحثٍ أن يشكّ فى أنّ القائلين ببناء المسجد على قبورهم كانوا هم المسلمين الموحّدين؟!

الثانى: ما رواه الطبرى فى تفسير قوله: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هـذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ» قال: إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشى بين سوقها فيسمع أُناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فزعاً ورأى أنّه

۱- أبو السعود محمد بن محمد العمادى، التفسير ۵: ۲۱۵.

۲- الزمخشرى، الكشاف ۲: ۲۴۵.

ص:۲۸

حيران، فقام مسنِداً ظهرَه إلى جدار من جُدران المدينة ويقول فى نفسه:

أمّا عشيةَ أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلّاقتل، أمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثمّ قال فى نفسه: لعلّ هذه ليست بالمدينة التى أعرف «(۱)».

وهذا يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحّدة مؤمنة متديّنة بشريعة المسيح، رغم ما كانوا على ضدّه قبل ثلاثمائة سنة.

وقال فى تفسير قوله تعالى: «فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً» فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» يقول: ربّ الفتية أعلم بشأنهم، وقوله: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ» يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

وقد نُقل عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير: فقال المشركون نبنى عليهم بنياناً فإنّهم آباؤنا ونعبد اللّه فيها، وقال المسلمون: نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبنى عليهم مسجداً فيه ونعبد اللّه فيه «(۲)».

الرأى المسبق يضرب عرض الجدار

إنّ الشيخ الألبانى ربيب الوهابيّة ومروّجها، لمّا رأى دلالة الآية على أنّ المسلمين حاولوا أنْ يبنوا مسجداً على قبورهم، وكان ذلك على

۱- الطبرى، التفسير ۱۵: ۲۱۹ فى تفسير سورة الكهف، الآية ۱۹ ط. مصر مصطفى الحلبى.

۲- الطبرى، التفسير ۱۵: ۲۲۵؛ ولاحظ تفسير القرطبى والكشاف للزمخشرى وغرائب القرآن للنيسابورى فى ذيل هذه الآية.

ص:۲۹

طرف الخلاف من عقيدته، حاول تحريف الكلم وقال: إنّ المراد من الغالبين هم أهل السلطة، ولا دليل على حجيّة فعلهم، ولكنّه عزب عن أنّ البيئة قد انقلبت عن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإسلام حسبما نقله الطبرى، وليس القائل ببناء المسجد على بابهم الملك، وإنّما القائل هم الذين توافدوا على باب الكهف عندما أعثرهم سبحانه على أحوالهم، وطبع الحال يقتضى توافد الأكثرية الساحقة القاطنين فى المدينة على باب الكهف لا خصوص الملك، ولا وزراؤه، بل الموحّدون بأجمعهم، وهو فى هذه النسبة عيال على ابن كثير حيث قال:

والظاهر أنّهم أصحاب النفوذ «(۱)».

نحن نفترض أنّهم أصحاب النفوذ، إلّاأنّهم نظروا إلى الموضوع من خلال منظار دينهم ومقتضى مذهبهم لا مقتضى سلطتهم.

تقرير القرآن عليصحّة كلا الاقتراحين

إنّ الذكر الحكيم يذكر كلا الاقتراحين من دون أىّ نقدٍ ورد، وليسصحيحاً قطعاً أن يذكر اللّه سبحانه عن هؤلاء المتواجدين على باب الكهف أمراً باطلًا من دون أيّة إشارة إلى بطلانه، إذ لو كان كذلك كأن يكون أمراً محرّماً أو مقدّمة للشرك والانحراف عن التوحيد، لكان عليه أن لا يمرّ عليها بلا إشارة إلى ضلالهم وانحرافهم، خصوصاً أنّ سياق الآية بصدد المدح وأنّ أهل البلد اتّفقوا على تكريم هؤلاء الذين هجروا

۱- ابن كثير، التفسير ۵: ۳۷۵.

ص:۳۰

أوطانهم لأجلصيانة عقيدتهم، غاية الأمر اختلفوا فى كيفيّته، فمن قائل ببناء البنيان إلى آخر ببناء المسجد.

إنّ القرآن كتاب نزل لهداية الإنسان وتربية الأجيال، والهدف من عرض حياة الأُمم ووقائعهم هو الاعتبار، فلا ينقل شيئاً إلّافيه عبرة، فلو كان الاقتراحان يمسّان كرامة التوحيد، لِمَ سكت عنه؟

وهذا ظاهر فيمن تدبّر فى القرآن الكريم، وسيوافيك بقيّة الكلام عند بيان النتيجة.

إنّ جمال الدين القاسمى الدمشقى (۱۲۸۳- ۱۳۳۲ ه) كان يصوّر نفسه مصلحاً إسلاميّاً يسعى فى توحيد كلمة المسلمين ولَمِّ شَعْثِهم، ومن شروط من يتبنّى لنفسه ذلك المقام الرفيع أن ينظر إلى المسائل من منظار وسيع ويستقبل الخلاف بين المسلمين بسعةصدر، ولكنّه- عفا اللّه عنه- يريد توحيد الكلمة فى ظلّ الأُصول التى ورثها عن ابن تيمية، فزاد فى الطين بلّة، ويشهد لذلك ما علّقه على عبارة ابن كثير، وإليك عبارة ابن كثير، وتعليق ذاك.

قال ابن كثير بعد تفسير الآية: هل هم كانوا محمودين أم لا؟ فيه نظر، لأنّ النبىّ قال: «لعن اللّه اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبياءهم وصالحيهم مساجد» يحذّر ما فعلوا.

وقال جمال الدين: وعجيب من تردّده فى كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده المسجّل بلعن فاعل ذلك، والسبب فى ذلك أنّ البناء على قبر النبىّ مَدعاة للإقبال عليه والتضرّع إليه، ففيه فتح

ص:۳۱

لباب الشرك وتوسّل إليه بأقرب وسيلة ... «(۱)».

يلاحظ عليه: أنّ القرآن هو الحجّة الكبرى للمسلمين، وفيه تبيان لكلّ شيء، وهو المهيمن على الكتب، فإذا دلّ القرآن على جوازه فما قيمة الخبر الواحد الذى روى فى هذا المجال إذا كان مضادّاً للوحى، ومخالفاً لصريح الكتاب، وإن كانت السنّة المحمديّة الواقعية لا تختلف عنه قيد شعرة، إنّما الكلام فى الرواية التى رواها زيد عن عمرو حتى ينتهى إلى النبى، فإنّ مثله خاضع للنقاش، ومرفوض إذا خالف الكتاب، لكن ما ذكره يعرب عن أنّ الأساس عنده هو الحديث لا الذكر الحكيم.

وكان عليه بعد تسليم دلالة القرآن أن يبحث فى سند الحديث ودلالته، وأنّ الحديث على فرض الصحّة ناظر إلى ما كان القبر مسجوداً له، أو مسجوداً عليه أو قِبلة، ومن المعلوم أنّ المسلمين لا يسجدون إلّا للّه، ولا يسجدون إلّاعلى ماصحّ السجود عليه، ولا يستقبلون إلّاالقِبلة، وسيتّضح نصّ محقّقى الحديث، على أنّ المراد هو ذلك، فانتظر.

وأعجب منه ما فى ذيل كلامه: من أنّه رأى التوسّل بالنبىّ شركاً، مع أنّ النصوص الصحيحة فى الصحاح تدلّ على جوازه، فقد توسّل الصحابى الضرير بالنبىّ الأكرم حسب تعليمه وقال: اللّهمّ إنّى أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبىّ الرحمة، يا محمد إنّى أتوجّه بك إلى ربّى فى حاجتى لتُقضى «(۲)».

۱- جمال الدين قاسمى، محاسن التأويل ۷: ۳۰- ۳۱.

۲- الترمذى، الصحيح ۵: كتاب الدعوات، الباب ۱۱۹ برقم ۲۵۷۸؛ ابن ماجة، السنن ۱: ۴۴۱ برقم ۱۳۸۵؛ الإمام أحمد، المسند ۴: ۱۳۸، إلى غير ذلك من المصادر.

ص:۳۲

وقد اتّفقوا على صحة الحديث، حتى أنّ ابن تيمية- مُثيرَ هذه الشكوك- اعترف بصحّته وقال: وقد روى الترمذى حديثاًصحيحاً عن النبيّ أنّه علّم رجلًا يدعو فيقول: ...، وقد أوردنا نصوص القوم فى كتاب «التوسّل».

ومن زعم أنّ هذه التوسّلات أساس الشرك، فلينظر إلى المسلمين طيلة أربعة عشر قرناً، فإنّهم ما برحوا يتوسّلون بالنبيصلى الله عليه و آله، وما عدلوا عن سبيل التوحيد قيد شعرة.

إنّ إنشاء البناء على قبر نبيّ التوحيد تأكيدٌ على مبدأ التوحيد ورسالته العالمية التى يشكل أصلها الأول قوله سبحانه: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

وقد خرجنا عن هذه الدراسة بالنتيجتين التاليتين:

۱- جواز البناء على قبور الأولياء والصالحين ودعاة التوحيد فضلًا عن النبيّ وما ذلك إلّاأنّ القرآن ذكر ذلك من دون أن يغمض فيه، وليس القرآن كتاباً قصصيّاً ولا- مسرحيّاً للتمثيل، بل هو كتاب هداية ونور، فإن نقل شيئاً ولم يغمض عليه فهو دليل على أنّه محمود عنده.

نرى أنّه سبحانه يحكى كيفيّة غرق فرعون ويقول: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (یونس/ ۹۰).

ولمّا كانت تلك الفكرة باطلة عنده سبحانه، أراد إيقاف المؤمنين على أنّ الإيمان فى هذا الظرف غير مفيد، فلأجل ذلك عقّب عيه بقوله:

«ءالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (یونس/ ۹۱).

ص:۳۳

فالإنسان العارف بالكتاب يقف على أنّه لم يترك عليصعيد العقائد أُموراً إلّاوذكر أوضحها وبيّنها بطرق مختلفة، ومن تلك الطرق القصص الواردة فى الكتاب العزيز، فكلّ ما وقع فى الأُمم السالفة وصار القرآن بصدد ذكره فهو على أقسام ثلاث: كونه بيّن الصحة، أو بيّن البطلان، أو المردّد بين الأمرين.

فقد يترك البيان فى الأولين لعدم الحاجة، وأمّا الثالث فلا يتركه إلّا إذا كان مقبولًا لديه.

۲- جواز بناء المسجد على قبور الصالحين فضلًا عن الأنبياء وجواز الصلاة فيها والتبرّك بتربته، فلو كانت الصلاة فى المقابر مكروهة فالأدلّة المرغّبة إلى الصلاة فى جِوار الصالحين والأنبياء تخصّص تلك العمومات، وذلك لأنّ للصلاة فى مشاهدهم مصلحة تغلب على الحضاضة الموجودة فى الصلاة فى المقابر المطلقة.

ص:۳۴

الآية الثالثة:صيانة الآثار الإسلامية وتعظيم الشعائر

اشارة

قال سبحانه: «ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج/ ۳۲).

والاستدلال بالآية يتوقّف على ثبوتصغرى وكبرى:

الصغرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياءً وأمواتاً من شعائر اللّه.

والكبرى عبارة عن كون البناء وصيانة الآثار والمقابر تعظيماً لشعائر اللّه.

ولا أظنّ أنّ الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنّما المهم بيان الصغرى، وأنّ الأنبياء والأوصياء من شعائر اللّه، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر اللّه من الآيات:

۱- «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» (البقرة/ ۱۵۸).

۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامِ وَلَا

ص:۳۵

الْهَدْیَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرَامَ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً» (المائدة/ ۲).

۳- «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَکُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَکُمْ فِیهَا خَیْرٌ» (الحج/ ۳۶).

وفی آیة أُخری جعل مکان شعائر اللّه حرمات اللّه وقال:

«ذلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا یُتْلَی عَلَیْکُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ...» (الحج/ ۳۰).

ما هو المقصود من شعائر اللّه؟

هنا احتمالات:

۱- تعظیم آیات وجوده سبحانه.

۲- معالم عبادته وأعلام طاعته.

۳- معالم دینه وشریعته وکلّ ما یمت إلیهما بصلة.

أمّا الأوّل، فلم یقل به أحد، إذ کل ما فی الکون آیات وجوده، ولا یصحّ تعظیم کلّ موجود بحجة أنّه دلیل علی الصانع.

وأمّا الثانی، فهو داخل فی الآیة قطعاً، وقد عدّ الصَّفا والمروةَ والبُدْن من شعائر اللّه، فهی من معالم عبادته وأعلام طاعته، إنّما الکلام فی اختصاص الآیة بمعالم العبادة وأعلام الطاعة، ولا دلیل علیه، بل المتبادر هو الثالث، أی معالم دینه سبحانه، سواء کانت أعلاماً لعبادته وطاعته أم لا، فالأنبیاء والأوصیاء والشهداء والصحف والقرآن الکریم والأحادیث النبویّة کلّها من شعائر دین اللّه وأعلام شریعته، فمن عظّمها فقد عظّم شعائر الدین.

ص:۳۶

قال القرطبی: فشعائر اللّه، أعلام دینه، لا سیما ما یتعلّق بالمناسک «(۱)».

ولقد أحسن حیث عمّم أولًا، ثمّ ذکر مورد الآیهٔ ثانیاً، وممّا یعرب عن ذلک أنّ ایجاب التعظیم تعلّق ب «حرمات اللّه» فی آیهٔ أُخری.

قال سبحانه: «وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، والحرمات ما لا یحلّ انتهاکه، فأحکامه سبحانه حرمات اللّه، إذ لا یحلّ انتهاکها، وأعلام طاعته وعبادته حرمات اللّه، إذ یحرم هتکها، وأنبیاؤه وأوصیاؤهم وشهداء دینه وکتبه وصحفه من حرمات اللّه، یحرم هتکهم، فلو عظّمهم المؤمن أحیاءً وأمواتاً فقد عمل بالآیتین: «وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ» «وَمَنْ یُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ».

۱- القرطبی، التفسیر ۱۲: ۵۶ طبع دار إحیاء التراث.

ص:۳۷

الآية الرابعة:صيانة الآثار ومودّة ذوى القربى

إنّ القرآن الكريم يأمرنا- بكلّصراحة- بحبّ النبيّصلى الله عليه و آله وأقربائه، ومودّتهم ومحبّتهم فيقول:

«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (المائدة/ ۵۶) و «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» (الشورى/ ۲۳).

ومن الواضح لدى كلّ من يخاطبه اللّه بهذه الآية أنّ البناء على مراقد النبيصلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، هو نوع من إظهار الحبّ والمودّة لهم، وبذلك يخرج عن كونه بدعة، لوجود أصل له فى الكتاب والسنّة، ولو بصورة كليّة.

وهذه العادة متّبعة عند كافة الشعوب والأُمم فى العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودّة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية فى كنائس ومقابر مشهورة ويزرعون أنواع الزهور والأشجار حولها.

ص:۳۸

الفصل الثانی: من منظار القواعد الفقهیّة

الأصل فی الأشیاء الإباحة والحلّیة

إنّ الأصل فی الأشیاء هو الإباحة ما لم یرد فیها نهی فی الشریعة، وهذه هی القاعدة المحکمة التی اعتمد علیها الفقهاء عبر القرون إلّا المتزمّتین غیر الواعین.

حتی أنّ الذکر الحکیم یصرّح بأنّ وظیفة النبیّ الأکرم هو بیان المحرّمات دون المحلّلات، وأنّ الأصل هو حلّیة کلّ عمل وفعل، إلّاأن یجد النبیّ حرمته فی شریعته، وأنّ وظیفة الأُمّة هو استفراغ الوسع فی استنباط الحکم من أدلّته، فإذا لم تجد دلیلًا علی الحرمة تحکم علیه بالجواز.

ونکتفی فی هذا المقام بالإشارة إلی مجموعة من الآیات، وإن کان فی السنّة الغرّاء أیضاً کفایة:

۱- قال سبحانه: «وَمَا لَکُمْ أَلَّا تَأْکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَکُمْ مَا حَرَّمَ عَلَیْکُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ وَإِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ

ص:۳۹

بِغَیْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ» (الأنعام/ ۱۱۹).

فإنّ هـذه الآیـة تکشف عن أنّ الذی یحتاج إلی البیان إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولأجل ذلک لا وجه للتوقّف فی العمل، بعدما لم یکن مبیّناً فی جدول المحرّمات.

وبعبارة أُخری: أنّ المسلم إذا لم یجد شیئاً فی جدول المحرّمات لم یکن له تبریر لتوقّفه وعدم الحکم علیه بالإباحة والجواز والحلّیة.

۲- قال سبحانه: «قُلْ لَاأَجِدُ فِی مَا أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلَی طَاعِمٍ یَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ یَکُونَ مَیْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ» (الأنعام/ ۱۴۵).

إنّها تکشف عن أنّ ما یلزم بیانه إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولـذلک یسـتدلّ مبلغ الوحی- ونعنی به النبی الکریمصـلی الله علیه و آله- بـأنّه لاـ یجـد فیمـا أُوحی إلیه محرّمـاً علی طـاعم یطعمه سوی الأُـمور المـذکورة، فـإذا لم یکن هناک شـیء فهو محکوم بالحلّیة والإباحة.

۳- قال سبحانه: «مَنِ اهْتَدی فَإِنَّمَا یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَی وَمَا کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا» (الإسراء/ ۱۵).

۴- قـال سـبحانه أیضـاً: «وَمَـا کَـانَ رَبُّکَ مُهْلِـکَ الْقُرَی حَتَّی یَبْعَثَ فِی أُمِّهَـا رَسُولًـا یَتْلُو عَلَیْهِمْ آیَاتِنَـا وَمَا کُنَّا مُهْلِکِی الْقُرَی إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» (القصص/ ۵۹).

إنّ دلالة هاتین الآیتین علی المقام واضحة، فإنّ جملة «وما کان» تارة تستعمل فی نفی الشأن والصلاحیة، وأُخری فی نفی کون الشیء

ص:۴۰

أمراً ممكناً.

أمّا الأوّل، فمثل قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (البقرة/ ۱۴۳) وغيرها كسورة آل عمران (الآيات ۷۹ و ۱۶۱)، أى ليس من شأن اللّه سبحانه وهو العادل الرؤوف أن يضيع أيمانكم.

وأمّا الثانى، فمثل قوله: «مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا» (آل عمران/ ۱۴۵)، أى لا يمكن لنفس أن تموت بدون إذنه سبحانه.

فيكون معنى الآيتين بناءً على الاستعمال الأول: هو ليس من شأن اللّه تعالى أن يعذّب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولًا.

وعلى الاستعمال الثانى: هو ليس من الممكن أن يعذّب اللّه الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولًا.

وعلى كلّ تقدير، فدلالة الآيتين على الإباحة واضحة، إذ ليست لبعث الرسل خصوصية وموضوعية، ولو أُنيط جواز العذاب ببعثهم فإنّما هو لأجل كونهم وسائط للبيان والإبلاغ، والملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان وإبلاغ، وأنّ التعذيب ليس من شأنه سبحانه، أو أنّه ليس أمراً ممكناً حسب حكمته.

۵- قال سبحانه: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا مُنْذِرُونَ» (الشعراء/ ۲۰۸).

فإنّ هذه الآية مشعرة بأنّ الهلاك كان بعد الإنذار والتخويف، وأنّ اشتراط الانذار كناية عن البيان وإتمام الحجّة.

۶- قوله سبحانه: «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى» (طه/ ۱۳۴).

ص:۴۱

فإنّ هـذه الآیة تدلّ علی أنّ التعذیب قبل بعث الرسول مردود بحجة المعذّبین وهی قولهم: «لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَیْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آیَاتِکَ»، فلا یصحّ التعذیب إلّابعد إتمام الحجّة علیهم ببعث الرسل.

وهـذا یعنی أنّ الأشـیاء مباحـة جائزة الارتکاب خالیـة عن العقوبة أصـلًا، إلّاإذا ردع عنها الشارع بشـکل من الأشـکال التی منها إرسال الأنبیاء.

۷- قوله سـبحانه: «یَـا أَهْلَ الْکِتَابِ قَـدْ جَاءَکُمْ رَسُولُنَا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلَی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِیرٍ وَلَا نَـذِیرٍ فَقَـدْ جَاءَکُمْ بَشِیرٌ وَنَذِیرٌ وَاللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٍ» (المائدة/ ۱۹).

فإنّ ظاهر قوله: «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِیرٍ وَلَا نَذِیرٍ» أنّه حجّة تامّةصحیحة، ویحتج به علی کلّ من عذّب قبل البیان، ولأجل ذلک قام سبحانه بإرسال الرسل حتی لا یُحتج علیه، بل تکون الحجة للّهسبحانه.

وهـذا یعطی أنّه لا یحکم علی حرمة شـیء ولا یجوز التعذیب علی ارتکابه قبل بیان حکمه، وذلک لأنّ بعث البشـیر والنذیر کنایة عن بیان الأحکام.

ص:۴۲

الفصل الثالث: المشاهد والمقابر من خلال سيرة المسلمين فی خير القرون

اشارة

قد تعرّفت على قضاء الكتاب فی تكريم الأنبياء والأولياء، وأنّ البناء على قبورهم أو بناء المساجد حول مراقدهم، أمر محبّذ، ندبت إليه الشريعة الإلهيّة، ولم ترَ أىّ أثر فيها للتحريم، وعلى ذلك درج السلف الصالح عبر القرون، ولم يزل الإلهيّون من أهل الكتاب والمسلمين على مدى العصور يهتمّون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير ثمّ التطهير والتنظيف لها، حتى أنّ كثيراً من المتمكّنين يُخصّصُون شيئاً من أموالهم لهذه الغاية.

فهذه القباب الشاهقة والمنائر الرفيعة والساحات الوسيعة حول مراقد الأنبياء والأولياء وحول مراقدصحابتهم فی مختلف الديار شرقها وغربها، لدليل قاطع على أنّ هذه السيرة سيرة مشروعة، وإلّا كان على الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان رفضها وردّها بالبيان والبنان

ص:۴۳

والسلطة والقوّة، فالسكوت عليها إلى عصر إثارة هذه الشكوك، عصر ابن تيمية، أدلّ دليل على كونها سيرة مشروعة.

وعندما قام ابن تيمية بوجه هذه السيرة أثار ثائرة المسلمين ضدّه شرقاً وغرباً، وقد بيّنوا ضلالة تلك الفكرة و نحرافها عن الشرع.

و قد وقف السلف الصالح- بعد فتح الشام- على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ، فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم- وعلى رأسهم عمر بن الخطاب- بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب هدمه.

وهكذا الحال فى سائر القبور المشيّدة عليها الأبنية فى أطراف العالم، وإن كنت فى ريب فاقرأ تواريخهم.

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التى كانت مشيّدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أنّ السنة الرائجة فى تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هى مشروعيّة البناء على القبور والعناية بحفظ آثار علماء الدين، ولم ينبس أى ابن أُنثى حول ذلك ببنت شفة، وما اعتُرض عليها، بل تلقوها اظهاراً للمحبّة والودّ لأصحاب الرسالات والنبوّات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه:

«وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنَصْلِهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» (النساء/ ۱۱۵).

ص:۴۴

وقد وارى المسلمون جسد النبى الأكرم فى بيته المسقّف، ولم يزل المسلمون منذ واروا جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتّى الأساليب.

وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً، حيث جاء تفصيل كلّ ذلك مع ذكر وصف الأبنية التى توالت عليها عبر القرون فى الكتب المتعلّقة بتاريخ المدينة، لا سيّما وفاء الوفا للإمام السمهودى المتوفّى عام ۹۱۱ ه «(۱)»، والبناء الأخير الذى شيّد عام ۱۲۷۰ ه قائم لم يمسّه سوء، وسوف يبقى بفضل اللّه تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجتراء.

وأمّا المشاهد والقباب المبنيّة فى المدينة منذ العصور الأُولى فحدّث عنها ولا حرج، لا سيّما فى بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة.

وقد ذكر كثير من المؤرّخين والسوّاح شيئاً كثيراً من أبنية شاهقة على قبور الأنبياء والصالحين فى خير القرون.

وبدورنا نذكر شيئاً يسيراً ممّا جاء فى كتبهم، ونكتفى بذكر كلمات ثلاثة من المؤرّخين المعروفين بالثبت والضبط، ثمّ نذكر ما ذكره الرحّالة المعروف ابن جبير فى رحلته على وجه التفصيل:

۱- كلمة المسعودى فى حقّ قبور أئمة أهل البيت عليهم السلام

هذا هو المسعودى الذى توفى عام ۳۴۵ ه، وقد أدرك خير القرون، وولد فى مؤخّره- لو كان خير القرون هو القرون الثلاثة الأُولى-

---

۱- السمهودى، وفاء الوفا ۲: ۴۵۸ الفصل التاسع.

ص:۴۵

يقول: وعلى قبورهم فى هذا الموضع من البقيع رخامة مكتوب عليها:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد للَّه‌مبيد الأُمم ومحيى الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول اللَّه (ص) سيّدة نساء العالمين وقبر الحسن بن علىّ ابن أبى طالب، وعلىّ بن الحسين بن أبى طالب، ومحمّد بن على وجعفر ابن محمد «(۱)».

۲- كلمة ابن الجوزى:

يقول ابن الجوزى: وهذا هو محمد بن أبى بكر التلمسانى يصف المدينة الطيّبة وبقيع الغرقد فى القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن على عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترفع إليه قليلًا، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن على، دفن إلى جنب أُمّه فاطمة رضى اللَّه عنها وعنه «(۲)».

۳- كلمة الحافظ محمد بن محمود بن النجّار:

يقول: فى قبة كبيرة عالية قديمة البناء فى أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما فى كلّ يوم للزيارة رضى اللَّه عنهم «(۳)».

۴- الرحّالة ابن جبير والأبنية على المشاهد:

اشارة

هذا هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى الشاطبى،

۱- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲: ۲۸۸.

۲- مجلة العربى: رقم ع ۶ المؤرخة ۱۳۹۳.

۳- أخبار مدينة الرسول، اهتمّ بنشره صالح محمد جمال، طبع مكة المكرّمة ۱۳۶۶.

ص:۴۶

أحد علماء الأندلس الأكابر فى الفقه والحديث، يحكى لنا فى رحلته عن الأبنية الرفيعة والقباب العالية فى المشاهد والمزارات المعروفة يومذاك للأنبياء والصالحين والنبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله وأهل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان.

فقد قام برحلات ثلاث، أهمّها استغرقت أكثر من ثلاث سنوات، حيث بدأها يوم الاثنين فى التاسع عشر من شهر شوال عام ۵۷۸ ه، و ختمها فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر محرم سنة ۵۸۱ ه، وقد وصف فى هذه الرحلة ما مرّ به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان.

كما وعنى عناية خاصة بوصف النواحى الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الأنبياء والأولياء وأهل البيت والصحابة والتابعين، وصفاً دقيقاً، يعرب عن أنّ هذه القباب والأبنية الرفيعة شُيّدت من قبل قرون تتّصل إلى عصر الصحابة والتابعين.

ولم يكن يومذاك أىُّ معترض على بنائها فوق قبور هؤلاء، ولم يدر بِخُلْدِ أحد أنّ هذه القباب والأبنية ستبعدنا عن التوحيد، بل كانوا يتبرّكون بهذا العمل ويبدون ما فى مشاعرهم من ودّ وحبّ لأصحابها.

وكان التبرّك والتقبيل سنّة رائجة بين المسلمين، وهم لم يكونوا يقبّلون باباً ويتبرّكون بالجدار، بل يتبرّكون بمن حوتهم، على حدّ قول مجنون العامرى:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغفن قلبى ولكن حبّ من سكن الديارا

وفيما يلى نشير بشكل مقتضب إلى مجمل كلامه:

مشهد رأس الحسين بالقاهرة:

يقول ابن جبير فى ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة:

فأوّل ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى ببركتها يمسكها اللَّه عزّ وجلّ، فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب، رضى اللَّه عنهما، وهو فى تابوت فضّة مدفون تحت الأرض قد بُنىَ عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ....

إلى أن يقول: ومن أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلّها، كأنّه المرآة الهندية الحديثة الصقل.

وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسّحهم بالكسوة التى عليه، وطوافهم حوله، مزدحمين داعين باكين متوسّلين إلى اللَّه سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدّسة، ومتضرّعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم، ومرآى الحال أهول، نفعنا اللَّه ببركة ذلك المشهد الكريم.

مشاهد الأنبياء والصالحين فى مصر:

يقول ابن جبير عن الجبّانة المعروفة بالقرافة: هى أيضاً إحدى عجائب الدنيا، لِما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياءصلوات اللَّه عليهم،

ص:۴۷

ص:۴۸

وأهـل البيت رضوان اللَّه عليهم، والصـحابة والتـابعين والعلمـاء والزهّـاد والأولياء ... فمنها قبر ابن النبيصالـح، وقبر روبيل بن يعقوب بن اسـحاق بن ابراهيم خليـل الرحمنصـلوات اللَّه عليهم أجمعين، وقبر آسـية امرأة فرعون رضـى اللَّه عنها، ومشاهـد أهل البيت رضـى اللَّه عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء.

إلى أن يقول: مشـهد علىّ بن الحسـين بن علىّ رضـى الله عنه، ومشـهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضـى اللَّه عنهم، والقاسم بن محمـد بن جعفر الصادق بن محمـد بن على زين العابـدين المـذكور، رضـى اللَّه عنهم، ومشـهدان لابنيهٔ الحسن والحسـين رضـى اللَّه عنهما، ومشـهد ابنه عبـد اللَّه بن القاسم رضـى الله عنه، ومشـهد ابنه يحيى بن القاسم، ومشـهد علىّ بن عبـد اللَّه بن القاسم، رضـى اللَّه عنهم، ومشـهد أخيه عيسى بن عبد اللَّه، رضى اللَّه عنهما، ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن، رضى اللَّه عنهم، ومشهد محمد بن عبد اللَّه بن محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسـين بن على، رضـى اللَّه عنهم، ومشهد جعفر بن محمد من ذريّهٔ علىّ بن الحسين، رضى اللَّه عنهم.

وأمّا عن النساء فيقول ابن جبير: مشـهد السـيّدهٔ أُمّ كلثوم ابنـهٔ القاسم بن محمـد بن جعفر، رضـى اللَّه عنهم، ومشـهد السـيّدهٔ زينب ابنهٔ يحيى بن زيد بن على بن الحسـين، رضـى اللَّه عنهم، ومشهد أُمّ كلثوم ابنهٔ محمد بن جعفر الصادق رضى اللَّه عنهم، ومشهد السيّدهٔ أُمّ عبد اللَّه بن القاسم بن محمد، رضى اللَّه عنهم.

ص:۴۹

مشاهد الصحابة فی مصر:

ویذکر أیضاً من المشاهد فی قوله: مشهد معاذ بن جبل رضی الله عنه، مشهد عقبة بن عامر الجهنی حامل رایة رسول اللّهصلی الله علیه و سلم، مشهدصاحب بردة الرسولصلی الله علیه و سلم، مشهد أبی الحسنصائغ رسول اللّهصلی الله علیه و سلم، مشهد ساریة الجبل رضی الله عنه، مشهد محمد بن أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنهما، مشهد أولاده رضی اللّه عنهم، مشهد أحمد بن أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنهما، مشهد أسماء ابنة أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنهما، مشهد ابن الزبیر بن العوام رضی اللّه عنهما، مشهد عبد اللّه بن حذافة السهمیصاحب رسول اللّهصلی الله علیه و سلم، مشهد ابن حلیمة رضیع رسول اللّهصلی الله علیه و سلم.

مشاهد الفقهاء الکبار فی مصر:

وعن مشاهد الأئمة العلماء الزهّاد یقول: مشهد الإمام الشافعی رضی الله عنه، وهو من المشاهد العظیمة احتفالًا واتّساعاً، وبُنی بإزائه مدرسة لم یُعْمَر بهذه البلاد مثلها، یخیل لمن یطوف علیها أنّها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلی غیر ذلک من مرافقها، والبناء فیها حتی الساعة، والنفقة علیها لا تُحصی، تولّی ذلک بنفسه الشیخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدین الحُبوشانی.

وسلطان هذه الجهاتصلاح الدین، یسمح له بذلک کلّه ویقول:

زد احتفالًا وتأنّقاً وعلینا القیام بمؤونة ذلک کله، فسبحان الذی جعله صلاح دینه کاسمه.

ثمّ یذکر مشاهد أُخری ویقول:

ص:۵۰

مشهد المُزَنيّصاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه، مشهد أشهبصاحب مالك رضى الله عنه، مشهد عبد الرحمن بن القاسمصاحب مالك رضى اللَّه عنهما، مشهد أصبغصاحب مالك رضى اللَّه عنهما، مشهد القاضى عبد الوهاب رضى الله عنه، مشهد عبد اللَّه بن عبد الحكم ومحمد بن عبد اللَّه بن عبد الحكم رضى اللَّه عنهما، مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبى الحسن الدينورى رضى الله عنه، مشهد بُنان العابد رضى الله عنه، مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الإبريق، وقصّته عجيبة فى الكرامة، مشهد أبى مُسلم الخَوْلانى رضى الله عنه، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى اللَّه عنها، مشهد الروذبارىّ رضى الله عنه، مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرّشيد المعروف بالسّبتى رضى الله عنه، مشهد الرجل الصالح مُقبل الحبشىّ رضى الله عنه، مشهد ذى النون بن ابراهيم المصرى رضى الله عنه، مشهد القاضى الأنبارى، قبر الناطق الذى سُمع عند وضعه فى لحده يقول: اللّهمّ أنزلنى مُنزلًا مباركاً وأنت خيرُ المنزلين رضى الله عنه، مشهد العروس ولها أثر من الكرامة فى حال جَلْوَتها على زوجها لم يُسمع أعجب منه، مشهد الصامت الذى يُحكى عنه أنّه لم يتكلّم أربعين سنة، مشهد العصافيرى، مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارزمى، مشهد الفقيه الواعظ الأفضل الجوهرىّ ومشاهد أصحابه بإزائه رضى اللَّه عنهم أجمعين، مشهد شُقْران شيخ ذى النّون المصرى، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربىّ، مشهد المقرئ وَرْش، مشهد الطبرى، مشهد شيبان الراعى.

والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تُضبَط بالتقييد أو تتحصّل

ص:۵۱

بالإحصاء، وإنّما ذكرنا منها ما أمكَنَتْنا مشاهدتهُ.

وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متّسع يُعرف بموضع قبور الشهداء، وهم الذين استُشهدوا مع سارية رضى اللّه عن جميعهم، والبسيط المذكور مُسنّم كله للعيان على مثال أسنِمة القبور دون بناء.

القباب الرفيعة لأهل البيت فى مكة المكرّمة:

وعن مشاهد مكة المكرّمة يقول ابن جبير: فمن مشاهدها التى عاينّاها قبّة الوحى، وهى فى دار خديجة أُمّ المؤمنين رضى اللّه عنها، وبها كان ابتناء النبيصلى الله عليه و سلم بها، وقبّةصغيرة أيضاً فى الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى اللّه عنها، وفيها أيضاً ولدت سيدىّ شباب أهل الجنّة، الحسن والحسين رضى اللّه عنهما، وهذه المواضع المقدّسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناءً يليق بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبيصلى الله عليه و سلم، والتربة الطاهرة التى هى أوّل تربة مسّت جسمه الطاهر بُنى عليها مسجد لم يُر أحفل بناءً منه، أكثره ذهب منزّل به، والموضع المقدّس الذى سقط فيهصلى الله عليه و سلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها اللّه رحمةً للأُمّة أجمعين محفوف بالفضة.

ثمّ يعد بعض المشاهد فيقول: دار الخيزران، وهى الدار التى كان النبيصلى الله عليه و سلم يعبد اللّه فيها سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضى اللّه عنهم ... دار أبى بكر الصديق ... قبّة بين الصفا والمروة تنسب لعمر بن الخطاب ...

يقول ابن جبير: دخلنا مولد النبيصلى الله عليه و سلم، وهو مسجد حفيل البنيان

ص:۵۲

وكان داراً لعبد اللَّه بن عبد المطلب ... إلى أن يقول: وعلى مقربةٍ منه أيضاً مسجد، عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد عليّ بن أبى طالب، رضوان اللَّه عليه، وفيه تربّى رسول اللَّهصلى الله عليه و سلم، وكان داراً لأبى طالب عمّ النبيصلى الله عليه و سلم وكافله.

المشاهد المكرّمة ببقيع الغرقد:

وفى ذكر المشاهد المكرّمة ببقيع الغرقد يقول ابن جبير: فأوّل ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه، وهو بقِبْلَى الجبل المذكور، والجبل جوفىّ المدينة، وهو على مقدار ثلاثة أميال، وعلى قبره رضى الله عنه مسجد مبنىّ، والقبر برحبة جوفى المسجد، والشهداء رضى اللَّه عنهم بإزائه ...

وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب إلى حمزة ويتبرّك الناس بها.

وبقيع الغرقد شرقى المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأوّل ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهدصفية عمّة النبيصلى الله عليه و سلم أُمّ الزبير بن العوام رضى الله عنه، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدنى رضى الله عنه وعليه قبّةصغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة ابراهيم ابن النبيصلى الله عليه و سلم وعليه قبّة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط، وهو المعروف بأبى شَحْمة، وهو الذى جَلَده أبوه الحدّ، فمرض ومات، رضى اللَّه عنهما، وبازائها قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وعبد اللَّه بن جعفر الطيار رضى الله عنه، وبازائهم روضة فيها أزواج النبيصلى الله عليه و سلم، وبإزائها روضةصغيرة

ص:۵۳

فيها ثلاثة من أولاد النبيصلى الله عليه و سلم، ويليها روضة العباس بن عبد المطّلب والحسن بن على رضى اللَّه عنهما، وهى قبّة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلى العبّاس رضى اللَّه عنهما، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متّسعان مُغشّيان بألواح ملصقة أبدَع إلصاق، مرصّعة بصفائح الصُّفْر، ومكوكَبة بمساميره على أبدعصفة وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النبيصلى الله عليه و سلم، ويلى هذه القبّة العبّاسيّة بيت يُنسَب لفاطمة بنت الرسولصلى الله عليه و سلم، ويعرف ببيت الحُزن، يقال: إنّه الذى أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفيصلى الله عليه و سلم، وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النّورين رضى الله عنه، وعليه قبّةصغيرة مختصرة، وعلى مقربةٍ منه مشهد فاطمة ابنة أسد أُمّ علىّ، رضى اللَّه عنها وعن بنيها.

ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تُحصى، لأنّه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار، رضى اللَّه عنهم أجمعين، وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب: ما ضمّ قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى اللَّه عنها وعن بنيها.

مشاهد الكوفة:

ويقول ابن جبير عن مسجد الكوفة:

وبهذا الجامع المكرّم آثار كريمة: فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: إنّه كان مصلّى ابراهيم الخليلصلى الله عليه و سلم، وعليه ستر أسودصوناً له، ومنه خرج الخطيب لابساً ثيابَ السواد للخطبة،

ص:۵۴

فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه، وعلى مقربة منه، ممّا يلى الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع عنصحن البلاط كأنّه مسجدصغير، وهو محراب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى ذلك الموضع ضربه الشقىّ اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلّون فيه باكين داعين، وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلىّ، المتّصل بآخر البلاط الغربىّ، شبيه مسجدصغير محلّق عليه أيضاً بأعواد الساج، هو موضع مَفار التّنور الذى كان آيةً لنوح عليه السلام، وفى ظهره، خارج المسجد، بيته الذى كان فيه، وفى ظهره بيت آخر يقال إنّه كان متعبَّد إدريسصلى الله عليه و سلم، ويتّصل بهما فضاء متّصل بالجدار القبلى من المسجد، يقال إنّه مُنشأ السفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، والبيت الذى غسل فيه، ويتّصل به بيت يُقال إنّه كان بيت ابنة نوحصلى الله عليه و سلم.

وهذه الآثار الكريمة تلقّيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، واللّه أعلم بصحّة ذلك كلّه.

وفىالجهةالشرقيّة منالجامع بيتصغير يُصعَد إليه فيه قبر مسلم ابن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى غربى المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجّى ميّتاً على ما يُذكر، ويقال: إنّ قبره فيه.

قبور العلماء والأولياء المشيّدة ببغداد:

يقول ابن جبير:

ص:۵۵

وبإحدى هذه المحلّات قبر معروف الكَرخى، وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر فى الأولياء، وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متّسع السّنام، عليه مكتوب: هذا قبر عَون ومَعين، من أولاد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى الجانب الغربى أيضاً قبر موسى بن جعفر، رضى اللَّه عنهما.

إلى مشاهد كثيرة ممّن لم تحضرنا تسميتُه من الأولياء والصالحين والسلف الكريم، رضى اللَّه عن جميعهم.

وبأعلى الشرقيّة خارج البلد محلّة كبيرة بإزاء محلّة الرّصافة، وبالرصافة كان باب الطّاق المشهور على الشطّ، وفى تلك المحلّة مشهد حفيل البنيان، له قبّة بيضاء سامية فى الهواء، فيه قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه، وبه تعرف المحلّة، وبالقرب من تلك المحلّة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وفى تلك الجهة أيضاً قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله، وقبر الحسين ابن منصور الحلاج، وببغداد من قبور الصالحين كثير، رضى اللَّه عنهم.

المشاهد المكرّمة والآثار المعظّمة فى الشام:

يقول ابن جبير:

فأوّلها مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليه السلام، وهو مدفون بالجامع المكرّم فى البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابيّة «(۱)»، رضى اللَّه عنهم، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه

۱- هى أول مقصورة وضعت فى الإسلام وضعها معاوية بن أبى سفيان.

ص:۵۶

قندیل کأنّه من بلّور مجوّف، کأنّه القدح الکبیر، لا یُدری أمن زجاج عراقیّ أمصُوریّ هو أم من غیر ذلک.

ومولـد ابراهیمصلّی اللَّه علیه وسـلّم وعلی نبیّنا الکریم، وهو بصـفح جبل قاسـیون عند قریهٔ تُعرف بِبَرْزَهٔ، وهی من أجمل القری، وهذا الجبل مشهور بالبرکهٔ فی القدیم لأنّه مصعد الأنبیاء،صلوات اللَّه علیهم، ومطلعهم، وهو فی الجههٔ الشمالیّهٔ من البلد وعلی مقدار فرسخ، وهـذا المولـد المبارک غار مسـتطیل ضـیّق، وقـد بُنی علیه مسـجد کبیر مرتفع مُقسّم علی مساجد کثیرهٔ کالغُرف المطلّهٔ، وعلیهصومعهٔ عالیهٔ، ومن ذلک الغار رأیصـلی الله علیه و سـلم الکوکب ثمّ القمر ثمّ الشـمس، حسبما ذکره اللَّه تعالی فی کتابه عزّ وجلّ «(۱)»، وفی ظهر الغار مقامه الذی کان یخرج إلیه، وهذا کلّه ذکره الحافظ محدّث الشام أبو القاسم بن هبهٔ اللَّه بن عساکر الدمشقی فی تاریخه فی أخبار دمشق، وهو ینیف علی مائهٔ مجلّد.

وذکر أیضاً أنّ بین باب الفرادیس، وهو أحد أبواب البلد، وفی الجههٔ الشـمالیّهٔ من الجامع المبارک، علی مقربهٔ منه إلی جبل قاسـیون، مدفن سـبعین ألف نبی، وقیل: سـبعون ألف شهید، وأنّ الأنبیاء المدفونین به سبعمائهٔ نبی، واللَّه أعلم، وخارج هذا البلد الجبّانهٔ العتیقهٔ، وهی مدفن الأنبیاء والصالحین، وبرکتها شـهیرهٔ، وفی طرفها ممّا یلی البساتین وَهْدَهٔ من الأرض متّصـلهٔ بالجبّانهٔ، ذُکر أنّها مدفن سـبعین نبیّاً، وعصمها اللَّه ونزّهها من أن یُدفن فیها أحد، والقبور محیطهٔ بها، وهی لا تخلو من

۱- الأنعام: ۷۶- ۷۸.

ص:۵۷

الماء حتی عادت قرارة له، کلّ ذلک تنزیه من اللَّه تعالی لها.

وبجبل قاسیون أیضاً لجهة الغرب، علی مقدار میل أو أزید من المولد المبارک، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأنّ فوقها فی الجبل دم هابیل قتیل أخیه قابیل إبنی آدمصلی الله علیه و سلم، یتّصل من نحو نصف الجبل إلی المغارة، وقد أبقی اللَّه منه فی الجبل آثاراً حُمراً فی الحجارة تُحک فتستَحیل، وهی کالطریق فی الجبل، وتنقطع عند المغارة، ولیس یوجد فی النصف الأعلی من المغارة آثار تشبهها، فکان یقال: إنّها لون حجارة الجبل، وإنّما هی من الموضع الذی جرّ منه القاتل لأخیه حیث قتله حتی انتهی إلی المغارة، وهی من آیات اللَّه تعالی، وآیاته لا تُحصی.

وقرأنا فی تاریخ ابن المعلّی الأسدی أنّ تلک المغارةصلّی فیها ابراهیم وموسی وعیسی ولوط وأیوب، علیهم وعلی نبیّنا الکریم أفضل الصلاة والسلام.

وعلیها مسجد قد أُتقن بناءه، ویُصعد إلیه علی أدراج، وهو کالغرفة المستدیرة، وحولها أعواد مشرجبة مطیفة بها، وبه بیوت ومرافق للسکنی، وهو یفتح کلّ یوم خمیس، والسُّرُج من الشمع والفتائل تَقِد فی المغارة، وهی متّسعة.

وفی أعلی الجبل کهف منسوب لآدمصلی الله علیه و سلم، وعلیه بناء، وهو موضع مبارک، وتحته فی حضیض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجُوع، ذُکر أنّ سبعین نبیّاً ماتوا فیها جوعاً، وکان عندهم رغیف، فلم یزل کلّ واحد منهم یؤثر بهصاحبه ویدور علیه من ید إلی ید حتی لحقتهم المنیّة،صلوات اللَّه علیهم. وعلی هذه المغارة أیضاً مسجد مبنی، وأبصرنا فیه

ص:۵۸

السُّرُج تَقِد نهاراً.

ولكلّ مشهد من هذه المشاهد أوقاف معيّنة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى إنّ البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه.

وكلّ مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يُعيّن لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلّدة.

ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتُنفِق فيها الأموال الواسعة وتعيّن لها من مالها الأوقاف.

ومن الأُمراء من يفعل مثل ذلك، لهم فی هذه الطريقة المباركة مُسارعة مشكورة عند اللّه عزّ وجلّ.

وبآخر هذا الجبل المذكور، فی آخر البسيط البستانی الغربی من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة فی كتاب اللّه تعالى، مأوى المسيح وأُمّه،صلوات اللّه عليهما، وهی من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالًا وإشراقاً، وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هی كالقصر المشيّد، ويُصعَد إليها على أدراج، والمأوى المبارك منها مغارةصغيرة فی وسطها، وهی كالبيت الصغير، وبإزائها بيت يقال: إنّه مصلّى الخضرصلى الله عليه و سلم، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيّما المأوى المبارك، وله باب حديدصغير ينغلق دونه، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم يُرَ أحسن منها، قد سِيقَ إليها الماء من

ص:۵۹

علو، وماؤها ينصبّ على شاذَرْوان «(۱)» فی الجدار متّصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم يُرَ أحسن من منظره، وخلف ذلك مطاهر يجرى الماء فی كلّ بيت منها ويستدير بالجانب المتّصل بجدار الشاذروان.

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومَقْسِم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كلّ نهر طريقه، وأكبر هذه الأنهار نهر يُعرف بثوار، وهو يشقّ تحت الربوة، وقد نُقِر له فی الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرّب واسع كالغار، وربّما انغمس الجَسُور من سُبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة فی النهر واندفع تحت الماء حتى يشقّ متسرّبه تحت الربوة ويخرج أسفلها، وهی مخاطرة كبيرة.

ويُشرَف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالًا واتّساعَ مسرح للأبصار، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرّب وتسيح فی طرق شتّى، فتحار الأبصار فی حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها، وشرفُ موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف فی غلوّ مدحه، وشأنها فی موضوعات الدّنيا الشريفة خطير كبير.

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلیّ بن أبی طالب رضی الله عنه، قد بُنی عليه مسجد حفيل رائق البناء، وبإزائه بستان كلّه نارنج، والماء

۱- الشاذروان: حائط صغير بجوار الجدار الأصلی لتقويته.

ص:۶۰

یطرد فیه من سقایة معیّنة، والمسجد کلّه ستور معلّقة فی جوانبهصغار وکبار.

ومن المشاهد المکرّمة مشهد سعد بن عُبادة رئیس الخزرج،صاحب رسول اللّهصلی الله علیه و سلم، وهو بقریة تعرف بالمَنِیحة شرقی البلد وعلی مقدار أربعة أمیال منه، وعلی قبره مسجدصغیر حسن البناء، والقبر فی وسطه، وعند رأسه مکتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج،صاحب رسول اللّهصلی الله علیه و سلم.

ومن مشاهد أهل البیت رضی اللّه عنهم: مشهد أُمّ کلثوم ابنة علیّ بن أبی طالب، رضی اللّه عنهما، ویقال بها زینب الصغری، وأُمّ کلثوم کنیة أوقعها علیها النبیصلی الله علیه و سلم، لشبهها بابنته أُمّ کلثوم، رضی اللّه عنها، واللّه أعلم بذلک، ومشهدها الکریم بقریة قبلیّ البلد تعرف براویة علی مقدار فرسخ، وعلیه مسجد کبیر، وخارجه مساکن، وله أوقاف، وأهل هذه الجهات یعرفونه بقبر الستّ أُمّ کلثوم، مشَینا إلیه وبتنا به وتبرّکنا برؤیته، نفعنا اللّه بذلک.

وبالجبّانة التی بغربی البلد، من قبور أهل البیت، کثیر، رضی اللّه عنهم، منها قبران علیهما مسجد یقال إنّهما من ولد الحسن والحسین، رضی اللّه عنهما، ومسجد آخر فیه قبر یقال إنّه لسکینة بنت الحسین، رضی اللّه عنهما، أو لعلّها سُکینة أُخری من أهل البیت.

ومن المشاهد أیضاً قبر بجامع النَیْرب، فی بیت بالجهة الشرقیّة منه، یقال إنّه لأُمّ مریم، رضی اللّه عنها.

وبقریة داریّة «(۱)» قبر أبی مسلم الخولانی رضی الله عنه، وعلیه قبّة هی

۱- تکتب عادة: داریا، بالألف.

ص:۶۱

علامة القبر، وبها أيضاً قبر أبی سليمان الدارانی رضی الله عنه.

وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال، وهی لجهة الغرب منه.

ومن المشاهد الكريمة التی لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ونوح عليهما السلام، وهما بالبِقاع، وهی علی يومين من البلد، وحدّثنا من ذَرَع قبر شيث فألفی فيه أربعين باعاً، وفی قبر نوح ثلاثين، وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له، وعلی هذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيّم يلتزمها.

ومن المشاهد المباركة أيضاً، بالجبّانة الغربيّة وبمقربة من باب الجابية، قبر أُويس القرنی رضی الله عنه، وقبور خلفاء بنی أُمية رحمهم الله، يقال: إنّها بإزاء باب الصغير بمقربة من الجبّانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يُسكَن فيه.

والمشاهد المباركة فی هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد، وإنّما رُسِم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم.

ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الأقدام، وهو علی مقدار ميلين من البلد ممّا يلی القبلة علی قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلی بلاد الحجاز والساحل وديار مصر، وفی هذا المسجد بيتصغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يری النبيّصلی الله عليه و سلم فی النوم فيقول: هاهنا قبر أخی موسيصلی الله عليه و سلم، والكثيب الأحمر علی الطريق بمقربة من هذا الموضع، وهو بين غالية وغُويلية كما ورد فی الأثر، وهما موضعان.

وشأن هذا المسجد فی البركة عظيم، ويقال: إنّ النور ما خلا قطّ من هذا الموضع الذی يذكر أنّ القبر فيه حيث الحجر المكتوب، وله أوقاف كثيرة.

ص:۶۲

فأمّا الأقـدام ففی حجارة فی الطریق إلیه مُعْلَم علیها، تَجـد أثر القدم فی کلّ حجر، وعدد الأقدام تسع، ویقال: إنّها أثر قدم موسـی علیه السلام، واللّه أعلم بحقیقة ذلک، لا إله سواه «(۱)».

هـذا وقـد أخـذنا من رحلـة ابن جبیر المواضـیع اللّازمـة، وإلّا فالسایر فی الکتاب یقف علی أُمور لم نذکرها، والکلّ یدلّ علی أنّ البناء علی القبور وصیانتها عن الانطماس وزیارتها فی فترات مختلفة کان أمراً رائجاً فی خیر القرون الذی جُعِل مقیاساً بین الحقّ والباطل.

ابن الحجاج والقبّة البیضاء علی قبر الإمام علی علیه السلام:

إنّ الحسـین بن أحمد بن محمد المعروف بابن الحجّاج البغدادی أحد الشـعراء المفلقین فی القرنین الثالث والرابع (۲۶۲- ۳۹۲ ه) أنشأ قصیدته الفائیة فی مدح الإمام أمیر المؤمنین، وأنشدها فی الحضرة العلویّة عندما زارها یقول فی مستهلّها:

یاصاحب القبّة البیضاء علی النجفِ من زارَ قبرک واستشفی لدیک شُفی

زوروا أبا الحسن الهادی لعلّکم تحظون بالأجر، والاقبال والزلف «(۲)»

۱- قد نقلنا هذه النصوص برمّتها عن رحلة ابن جبیر طبع دار صادر عام ۱۳۸۴، فراجع فیما یرجع إلی مصر صفحة ۱۹- ۲۴، وفیما یرجع إلی مکة المکرّمة صفحة ۸۷، ۱۴۱ و ۱۴۲، وفیما یرجع إلی المدینة المنوّرة صفحة ۱۷۳- ۱۷۴، وفیما یرجع إلی مشاهد الکوفة صفحة ۱۸۷- ۱۹۸، وفیما یرجع إلی بغداد صفحة ۲۰۲، وما یرجع إلی الشام صفحة ۲۴۶- ۲۴۹ و ۲۵۳- ۲۵۴.

۲- إقرأ ترجمته فی یتیمة الدهر ۳: ۲۵؛ معجم الأُدباء ۴: ۶؛ المنتظم ۷: ۲۱۶؛ تاریخ بغداد ۸۰: ۱۴؛ وفیات الأعیان ۱: ۱۷۰؛ الکامل لابن الأثیر ۹: ۶۳ إلی غیر ذلک من مصادر الترجمة؛ وفی روضات الجنّات ۳: ۱۴۸- ۱۵۵ له ترجمة ضافیة.

ص:۶۳

والقصيدة تعرب عن وجود البناء والقبّة البيضاء على القبر، والزلف والتفاف الزائرين حوله فى عصره، ومع ذلك يدّعى بعض الوهابيين، أنّ البناء على القبور لم يكن فى خير القرون وأنّه من البدع المستحدثة.

ولأجل شيوع البناء على القبور فى جميع الأقطار الإسلاميّة نجد أنّ الأمير محمد بن اسماعيل اليمانى الذى توهّب مع كونه زيدياً يفترض على نفسه ويقول فى كتابه: وهذا أمر عمّ البلاد وطبق الأرض شرقاً وغرباً بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلّافيها قبور ومشاهد، ولا يسع عقل عاقل أنّ هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام «(۱)».

فلو كانت هذه سيرة المسلمين من خير القرون إلى عصرنا فلماذا لا تكون حجّة؟ فلو كان التهديم أمراً واجباً فلماذا ترك الخلفاء تلك الفريضة؟! فهل يصحّ لنا اتّهامهم بالتسامح فى أمر الدين مع أنّ الصحابة والتابعين مرّوا على تلك الآثار ولم ينبسوا فيها ببنت شفة؟

وإذا لم يكن ذلك الإجماع حجّة، فأىّ إجماع يكون حجّة شرعيّة؟

فهذه النصوص من المؤرّخين تدلّ بوضوح على جريان السيرة على بناء القباب والأبنية على قبور الأولياء من دون أن يخطر ببال أحد أنّه مقدمة للشرك ومفضٍ إليه، فإذا لم يكن مثل هذا الإجماع حجّة فأىّ

۱- الأمير محمد بن اسماعيل اليمانى ت ۱۱۸۶ ه تطهير الاعتقاد: ۱۷، ثمّ إنّه حاول أن يُجيب عن هذا الاستنكار بما الإعراض عن ذكره أحسن.

ص:۶۴

إجماعٍ حجّة؟

والعجب من ابن بليهد قاضى الحكومة السعودية أيام تدمير آثار رسول اللّهصلى الله عليه و آله عام ۱۳۴۴ ه فبعد ما نفّذ ما أُمر به من قبل المشايخ، نشر بياناً فى جريدة أُمّ القرى فى عددها الصادر فى شهر جمادى الآخر من شهور سنة ۱۳۴۵ ه وممّا جاء فيه قوله: إنّ القباب على مراقد العلماءصار متداولًا منذ القرن الخامس الهجرى.

فهل هذاصحيح أو افتراء أمام كلّ هذه النصوص من المسعودى وغيره؟ وليس البحث فى خصوص العلماء، بل مطلق قبور المسلمين، نبيّاً كان أو وليّاً،صحابيّاً كان أو تابعياً، فقهياً كان أو محدّثاً.

ونعم ما قال السيد المحقّق محسن الأمين فى قصيدته المسمّاة بالعقود الدُّريّة فى ردّ شبهات الوهابية:

أو ليس أُمّة أحمد إجماعها فيه الصوابُ وحجّةٌ لم تردد

وعلى ضلالٍ كلّها لم تجتمع فيما رويتم فى الحديث المسندِ

مضت القرون وذى القباب مشيّدة والناس بين مؤسس ومجدّد

فى كلّ عصر فيه أهل الحلّ و العقد الذين بغيرهم لم يُعقد

لم يُنكروا أبداً على من شادها شيدت ولا من منكر ومغند

مِنْ قبل أنْ تلد ابنها تيمية أو يخلق الوهاب بعضَ الأعبد

أفأىّ إجماع لكم أقوى على أمثاله من مورد لم يورد

فبسيرة للمسلمين تتابعت فى كلّ عصر نستدلّ ونقتدى

أقوى من الإجماع سيرتهم ومن قد حاد عنها فهو غير مسدّد

هيهات ليس نبيّاً إنّ بليهد فى الناس لم يُخطئ ولم يتعمّد

ص:۶۵

كلّا ولا العلماء قد حصرت به هى فى بقاع الأرض ذات تعدّد

كلّا ولا من وافقوه لخوفهم أو جهلهم من خائف ومقلّد

والجُلُّ من علماء طيبة ساكت للخوف مكفوف اللسان مع اليد «(۱)»

كيف يدّعى الإجماع على التحريم مع أنّ فقهاء المذاهب الأربعة فى العصر الحاضر اتّفقوا على الكلمة التالية: يكره أن يبنى القبر ببيت أو قبّة أو مسجد «(۲)»، أين الكراهة من الحرمة، وأين هى من الشرك؟

وهذا النووى شارحصحيح مسلم يقول فى شرح حديث أبى الهياج الذى سيوافيك نصّه: أمّا البناء فإن كان فى ملك البانى فمكروه وإن كان فى مقبرة مسبلة فحرام، نصّ عليه الشافعى والأصحاب «(۳)».

إنّ التحريم فى الصورة الثانية لكونه مزاحماً للانتفاع، وعلى خلاف أهداف الواقف وأغراضه، وأين هو من البناء على أرض مشتراة أو مهداة أو موات فلا تترتّب عليها تلك الحرمة.

دفن النبىّ الأكرمصلى الله عليه و آله فى بيته الرفيع ولم يخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أنّ البناء على القبر حرام وأنّهصلى الله عليه و آله نهى عنه نهياً مؤكداً، ولمّا كان البيت متعلّقاً بالسيدة عائشة جعلوا فى وسطه ساتراً، ولمّا توفّى الشيخان أوصيا بدفنهما فى حجرة النبيصلى الله عليه و آله تبركاً بذاته ومكانه، ولم تُسْمَع عن أى ابن انثى نعيرةُ أنّه حرام ولا مكروه، وعلى ذلك استمرّت سيرة المسلمين فى حقّ العلماء والأولياء، يدفنونهم فى البيوت المعدّة

۱- محسن الأمين، كشف الارتياب: ۲۹۵ وهى مطبوعة فى آخر الكتاب.

۲- الجريرى، الفقه على المذاهب الأربعة ۱: ۴۳۱.

۳- النووى، شرح صحيح مسلم ج ۱۷ كتاب الجنائز ط مصر.

ص:۶۶

لـذلك، أو يرفعون لمراقـدهم قواعـد وسـقفاً بعد الدفن، تكريماً لهم و تقدير اًلتضـحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنّه على خلاف الدين والشرع.

وهذا عمل المسـلمين وسـيرتهم القطعيّة فى جميع الأقطار والأمصار، على مرأى ومسـمع الجميع وإنْ اختلفت نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصـر، من الشـيعة والسـنّة، وأى بلاد من بلاد الإسلام من مصر والعراق أو الحجاز أو سوريا، وتونس ومراكش وإيران، وهلمّ جرّا، ليس فيها قبور مشيّدة، وضرائح منجدة، وهؤلاء أئمة المذاهب:

الشافعى فى مصر، وأبو حنيفة فى بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب، شامخة المبانى، غير أنّ الوهابيّين لمّا استولوا على المدينة هدموا قبر مالك.

وهذه القبور قد شُيّدت وبنيت فى الأزمنة التى كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذاهب، فما أنكر منهم نكر، وليس هذا رائجاً بين المسـلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعدّ تعمير قبور الشخصـيات من غرائز البشـر ومقتضـيات الحضارة وشارة الرقىّ، فكلّ هـذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن السـيرة المسـلّمة بين المسـلمين والعقلاء عامّة غير مفيدة فى المقام، فلا يصحّ الاستناد إلى أيّة سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس.

وليس يصحّ فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ثمّ إنّ الوهابيّين تمسّـكوا بروايات، إمّا عديمـة الدلالة، أو ضـعيفة السـند، وسـنذكر فى الفصل الآتى بشـكل عام مجملَ ما تمسّـكوا به ليتبيّن مدى وعيهم.

ص:۶۷

الفصل الرابع: ذرائع الوهابيۀ فی هدم الآثار

اشارۀ

استدلّت الوهابيۀ بروايات نذكرها واحدةً بعد الأُخرى:

الأُولى: روايۀ أبی الهياج الأسدی

اشارۀ

روی مسلم فيصحيحه قال: حدّثنا يحيی بن يحيی وأبو بكر بن أبی شيبۀ وزهير بن الحرب، قال يحيی: أخبرنا، وقال الآخران: حدّثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبی ثابت، عن أبی وائل، عن أبی الهياج الأسدی قال: قال لی علیّ بن أبی طالب: ألا أبعثك علی ما بعثنی عليه رسول اللّه .. أن لا تدع تمثالًا إلّاطمسته ولا قبراً مشرفاً إلّاسوّيته «(۱)».

زعم المستدلّ أنّ معناه: ولا قبراً عالياً إلّاسوّيته بالأرض.

أقول: الاستدلال بالحديث فرعصحّۀ سنده، وتماميّۀ دلالته،

۱- مسلم، الصحيح ۳: ۶۱ كتاب الجنائز؛ الترمذی، السنن ۲: ۲۵۶ باب ما جاء فی تسويۀ القبور؛ النسائی، السنن ۴: ۸۸ باب تسويۀ القبر.

ص:٦٨

ولكنّه موهون من كلا الجانبين.

أمّا السند، فيكفى أنّ علماء الرجال تحدّثوا فى رجال الحديث ونقلوا تصريح الأئمة بضعفهم، وهؤلاء عبارةً عن:

١- وكيع.

٢- سفيان الثورى.

٣- حبيب بن أبى ثابت.

۴- أبو وائل الأسدى.

وإليك أقوال العلماء فى حقّهم:

١- وكيع:

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرواسى الكوفى، روى عن عدّة، منهم: سفيان الثورى، وروى عنه جماعة منهم: يحيى بن يحيى وهو كما ورد فى حقّه المدح، ورد فى حقّه الجرح كثيراً، وهذا ابن حجر يعرّفه فى تهذيب التهذيب بالنحو التالى: عن الإمام ابن حنبل: كان وكيع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدى كثيراً، وقال فى موضع آخر: ابن مهدى أكثر تصحيفاً من وكيع ووكيع أكثر خطأً منه.

وقال ابن عماد: قلت لابن وكيع: عدّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث خلطتَ فيها؟ فقال: حدّثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة ليس بكثير فى ألف وخمسمائة.

وقال علىّ بن المدينى: كان وكيع يلحن ولو حدّثَ بألفاظه لكان عَجَباً.

ص:۶۹

وقال محمد بن نصر المروزی: کان یُحدّث بآخره من حفظه فیغیّر ألفاظ الحدیث کأنّه یحدّث بالمعنی ولم یکن من أهل اللسان «(۱)».

وقال الذهبی فی میزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المدینی:

کان وکیعَ یلحن ولو حدّث بألفاظه کان عجباً «(۲)».

۲- سفیان الثوری:

وهو سفیان بن سعید بن مسروق الثوری الکوفی، فقد مدحوه، ولکن الذهبی یقول: إنّه کان یدلِّس عن الضعفاء، ولکن کان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال یدلِّس ویکتب عن الکذّابین «(۳)».

وقال ابن حجر: قال ابن المبارک: حدّث سفیان بحدیث فجئته وهو یدلِّس، فلمّا رآنی استحیی وقال: نرویه عنک؟ «(۴)».

وقال فی ترجمة یحیی بن سعید بن فروخ: قال أبو بکر وسمعت یحیی یقول: جهد الثوری أن یدلِّس علیّ رجلًا ضعیفاً فما أمکنه «(۵)».

والتدلیس هو أن یروی عن رجل لم یلقه وبینهما واسطة فلا یذکر الواسطة.

وقال أیضاً فی ترجمة سفیان: قال ابن المدینی عن یحیی بن سعید: لم یلق سفیان أبا بکر بن حفص ولا حیان بن إیاس، ولم یسمع من

۱- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱۱: ۱۲۳، ۱۳۱.

۲- الذهبی، میزان الاعتدال ۴: ۳۳۶.

۳- الذهبی، میزان الاعتدال ۲: ۱۶۹ برقم ۳۳۲۲.

۴- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴: ۱۵ فی ترجمة سفیان.

۵- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱۱: ۲۱۸.

ص:۷۰

سعید بن أبی البردة، وقال البغوی: لم یسمع من یزید الرقاشی، وقال أحمد: لم یسمع من سلمة بن کهیل حدیث المسائیة «(۱)» یضع ما له حیث یشاء، ولم یسمع من خالد بن سلمة بتاتاً ولا من ابن عون إلّاحدیثاً واحداً «(۲)».

وهذا تصریح من ابن حجر بکون الرجل مُدلِّساً، ربّما یروی عن أُناس یوهم أنّه لقیهم ولم یلقَهُم ولم یسمع منهم.

۳- حبیب بن أبی ثابت:

هو حبیب بن أبی ثابت قیس بن دینار، وَثّقهُ بعض، ولکن قال ابن حبّان فی الثّقاة: کان مدلّساً، وقال العقیلی: غمزه ابن عون، وقال القطّان:

له غیر حدیث عن عطاء، لا یُتابع علیه ولیست محفوظة.

وقال ابن خزیمة فیصحیحه: کان مدلّساً «(۳)».

وقال ابن حجر أیضاً فی موضع آخر: کان کثیر الإرسال والتدلیس، مات سنة ۱۱۹ ه.

ونقل عن کتاب الموضوعات لابن الجوزی من نسخة بخطّ المنذری أنّه نقل فیه حدیثاً عن أُبیّ بن کعب فی قول جبرئیل: لو جلست معک مثلما جلس نوح فی قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال: لم یُعِلْه ابن الجوزی إلّابعبد اللّه بن عمّار الأسلمی شیخ حبیب بن ثابت «(۴)».

۱- العبد المعتق.

۲- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴: ۱۱۵.

۳- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۲: ۱۷۹.

۴- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱: ۱۴۸ برقم ۱۰۶.

ص:۷۱

۴- أبو وائل الأسدی:

اشارة

هو شقیق ابن سلمة الکوفی، کان منحرفاً عن علیّ بن أبی طالب، قال ابن حجر: قیل لأبی وائل: أیّها أحبُّ إلیک علیّ أم عثمان؟ قال: کان علیّ أحبّ إلیّ ثمّصار عثمان «(۱)».

ویکفی فی قدحه أنّه کان من ولاة عبید اللّه بن زیاد، قال ابن أبی الحدید: قال أبو وائل: استعملنی ابن زیاد علی بیت المال بالکوفة.

هذا کلّه حول سند الروایة وهؤلاء رواتها، ولو ورد فیهم مدح فقد ورد فیهم الذم، وعند التعارض یقدم الجارح علی المادح فیسقط الحدیث عن الاستدلال.

ویکفی أیضاً فی ضعف الحدیث أنّه لیس لروایة أعنی أبا الهیاج فی الصحاح والمسانید حدیث غیر هذا، فکیف یستدلّ بحدیث یشتمل علی المدلِّسین والمضعِّفین؟ وکیف یُعْدَل بهذا الحدیث عن السیرة المستمرّة بین المسلمین؟!

والآن إلیک بیان عدم دلالة الحدیث علی الموضوع بتاتاً:

ضعف دلالة الحدیث

إنّ توضیح ضعف دلالة الحدیث یتوقّف علی بیان معنی اللّفظین الواردین فیه:

۱- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴: ۳۶۲.

ص:۷۲

۱- قبراً مشرفاً.

۲- إلّاسوّیته.

أمّا الأوّل: فقالصاحب القاموس: والشرف، محرکة العلو، ومن البعیر سنامه، وعلی ذلک یحتمل المراد منه مطلق العلوّ، أو العلوّ الخاص کسنام البعیر الذی یعبّر عنه بالمسنَّم ولا یتعیّن أحد المعنیین إلّابالقرینة.

أمّا الثانی: فهو تارةً یُستخدم فی بیان مساواة شیء بشیء فی الطول أو العرض، فیقال: هذا القماش یساوی بهذا الآخر فی الطول.

وأُخری فی التسویة، أی کون الشیء مسطّحاً لا انحناء ولا تعرّج فیه.

والفرق بین المعنیین واضح، فإنّ التسویة فی الأوّل وصف للشیء بمقایسته مع شیء آخر، وفی الثانی وصف لنفس الشیء ولا علاقة له بشیء آخر.

فلو استعمل فی المعنی الأوّل لتعدّی إلی مفعولین: أحدهما بلا واسطة، والآخر بمعونة حرف الجرّ، قال تعالی حاکیاً عن لسان المشرکین وأنّهم یخاطبون آلهتهم بقولهم: «إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِینَ»، أی نعدّ الآلهةَ الکاذبة مساویةً بربّ العالمین فی العبادة أو فی الاعتقاد بالتدبیر.

وقال سبحانه حاکیاً عن حال الکافرین یوم القیامة: «یَوْمَئِذٍ یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَعَصَوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّی بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا یَکْتُمُونَ اللَّهَ حَدِیثاً» (النساء/ ۴۲)، أی یودّون أنْ یکونوا تراباً أو میتاً مدفوناً تحت الأرض، ویکون هؤلاء والأرض متساویة.

تری أنّ تلک المادة تعدّت إلی مفعولین وأُدخل حرف الجرّ علی المفعول الثانی.

ص:۷۳

وأمّا إذا استعمل فی المعنی الثانی أی فیما یکون وصفاً للشیء بلا علاقة له بشیء آخر فیکتفی بمفعول واحد، قال سبحانه: «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی» (الأعلی/ ۲)، وقال سبحانه: «بَلَی قَادِرِینَ عَلَی أَنْ نُسَوِّیَ بَنَانَهُ» (القیامة/ ۴)، وقال سبحانه: «فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ» (الحجر/ ۲۹)، ففی جمیع هذه الموارد یراد من التسویة کونها وصفاً للشیء بما هو هو، وهو فیها کنایة عن کمال الخلقة بعیدة عن النقص والاعوجاج.

هذا هو مفهوم اللفظ لغةً، وهلمّ معی ندرس الحدیث وأنّه ینطبق مع أیٍّ من المعنیین.

نلاحظ أنّه تعدّی إلی مفهوم واحد، ولم یقترن بالباء، فهو آیة أنّ المراد هو المعنی الثانی، وهو تسطیح الأرض فی مقابل تسنیمه، وبسطه فی مقابل اعوجاجه لا مساواته مع الأرض، وإلّا کان علیه علیه السلام أن یقول:

سوّیته بالأرض، ولم یکتف بقوله سوّیته.

أضف إلی ذلک أنّ ما ذکرناه هو الذی فهمه شرّاح الحدیث ویکون دلیلًا علی أنّ التسطیح سنّة والتسنیم بدعة وأمر علیّ علیه السلام أن تکافح هذه البدعة ویسطّح کلّ قبر مسنّم، وإلیک ذکر نصوصهم:

قال القرطبی فی تفسیر الحدیث: قال علماؤنا: ظاهر حدیث أبی الهیاج منع تسنیم القبور ورفعها وأن تکون واطئة «(۱)».

أقول: إنّ دلالة الحدیث علی منع تسنیم القبور ظاهر، وأمّا دلالتها علی عدم ارتفاعها کما هو ظاهر قوله «ومنع رفعها» فغیر ظاهر، بل

۱- القرطبی، التفسیر ۲: ۳۸۰ تفسیر سورة الکهف.

ص:۷۴

مردود باتّفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر «(۱)».

۲- قال ابن حجر العسقلانی فی شرحه علی البخاری ما هذا نصّه:

مُسنّماً بضمّ المیم وتشدید النون المفتوحة أی: مرتفعاً، زاد أبو نعیم فی مستخرجه: وقبر أبو بکر وعمر کذلک، واستدلّ به علی أنّ المستحب تسنیم القبور، وهو قول أبی حنیفة ومالک وأحمد والمزنی وکثیر من الشافعیة.

وقال أکثر الشافعیة ونصّ علیه الشافعی: التسطیح أفضل من التسنیم، لأنّهصلی الله علیه و آله سطّح قبر ابراهیم، وفعله حجّة لا فعل غیره، وقول السفیان التمّار: رأی قبر النبیّ مسنّماً فی زمان معاویة، لا حجّة فیه، کما قال البیهقی، لاحتمال أنّ قبرهصلی الله علیه و آله وقبریصاحبیه لم تکن فی الأزمنة الماضیة مسنّمة- إلی أن قال:- ولا یخالف ذلک قول علی علیه السلام: أمرنی رسول اللّه أن لا أدع قبراً مشرفاً إلّاسوّیته، لأنّه لم یرد تسویته بالأرض، وإنّما أراد تسطیحه جمعاً بین الأخبار، ونقله فی المجموع عن الأصحاب «(۲)».

۳- وقال النووی فی شرحصحیح مسلم: إنّ السنّة أنّ القبر لا یرفع عن الأرض رفعاً کثیراً، ولا یُسنَّم بل یُرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعی ومن وافقه، ونقل القاضی عیاض عن أکثر العلماء أنّ الأفضل عندهم تسنیمها، وهو مذهب مالک «(۳)».

۱- الفقه علی المذاهب الأربعة ۱: ۴۲.

۲- إرشاد الساری ۲: ۴۶۸.

۳- صحیح مسلم بشرح النووی ۷: ۳۶ ط الثالثة، دار احیاء التراث العربی.

ص:۷۵

ویؤیّد ذلک أنّصاحب الصحیح (مسلماً) عنون الباب ب «باب تسویة القبور» ثمّ روی بسنده إلی تمامه، قال: کنّا مع فضالة بن عبید بأرض الروم، فتوفّیصاحب لنا، فأمر فضال بن عبید بقبره فسوّی، قال:

سمعت رسول اللّهصلی الله علیه و آله یأمر بتسویتها، ثمّ أورد بعده فی نفس الباب حدیث أبی الهیاج المتقدّم «(۱)».

وفی الختام نذکر أُموراً:

۱- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتّفقت علیه کلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وکلّهم متّفقون علی أنّه یندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر «(۲)».

ولو أخذنا بالتفسیر الذی یرومه الوهابی من حدیث أبی الهیاج من مساواة القبر بالأرض یجب أن یکون القبر لاطئاً مساویاً معه.

۲- لو افترضناصحّة حدیث أبی الهیاج سنداً ودلالة، فغایة ما یدلّ علیه هو تخریب القبر ومساواته بالأرض، ولا یدلّ علی هدم البناء الواقع علیه، فتخریب القباب المشیّدة التی هی مظاهر الودّ لأصحابها استناداً إلی هذا الحدیث عجیب جدّاً.

۳- إنّ الصحابة دفنوا النبیّ الأکرم فی بیته من أوّل یوم، وقد وصّی الخلیفتان بأنْ یُدفنا تحت البناء جنب النبیّ الأکرم تبرّکاً بالقبر وصاحبه، فلو کان البناء علی القبور أمراً محرّماً ومن مظاهر الشرک، فلماذا وارت

۱- المصدر السابق.

۲- الفقه علی المذاهب الأربعة ۱: ۴۲.

ص:۷۶

الصحابة جثمانه الطاهرصلى الله عليه و آله تحت البناء؟ ولماذا أوصى الخليفتان بالدفن تحته؟

ولمّا واجهت الوهابية عمل الصحابة فى مواراة النبىّ قامت بالتفريق وقالت: إنّ الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبىّ تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئاً «(۱)».

ونترك هذا الجواب بلا تعليق، إذ هو فى غاية السقوط، إذ أىّ فرق بين الأمرين، فإنّ البناء على القبر مَدْعاة للإقبال إليه والتضرّع إليه، ففيه فتح لباب الشرك وتوسّل إليه بأقرب وسيلة ... «(۲)».

فإذا كان البناء على وجه الإطلاق ذريعة للشرك وتوجّهاً إلى المخلوق، فلماذا نرخّص بعضصوره ونحرّم بعضها الآخر، وما هذا إلّا لأنّ الوهابية وإن كانوا ينسبون أنفسهم إلى السلفية، إلّاأنّ السلفية بعيدون عنهم بعد المشرقين.

إلى هنا تمّت دراسة أبى الهياج، ولندرس حديث جابر الذى هو المستمسك الآخر لمدمّرى آثار الرسالة.

الثانية: دراسة حديث جابر

إنّ الوهابيين يستدلّون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذكر نصاً واحداً منها:

روى مسلم فيصحيحه: حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدّثنا

۱- عقيل بن الهادى، رياض الجنّة، ط الكويت.

۲- جمال الدين القاسمى، محاسن التأويل ۷: ۳۰.

ص:۷۷

حفص بن غياث، عن ابن جريج، عن أبى الزبير، عن جابر قال: نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه «(۱)».

وحديث جابر هذا لا يحتجّ به، لكونه غيرصحيح سنداً وضعيف دلالةً.

أمّا الأوّل: فلأنّ جميع أسانيده مشتملة على رجلين هما فى غاية الضعف:

۱- ابن جريج: وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

۲- أبو الزبير: وهو محمد بن مسلم الأسدى.

أمّا الأول: فإليك كلمات أئمة الرجال فى حقّه:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له: إنّه يقول: أخبرنى؟ قال: لا شىء .. كلّه ضعيف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج: قال فلان وقال فلان جاء بمناكير.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل.

وقال الدارقطنى: يُجتنب تدليس ابن جريج، فإنّه قبيح التدليس، لا يدلِّس إلّافى ما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: كان ابن جريج يدلِّس فى الحديث «(۲)».

۱- لاحظ للوقوف على متونها المختلفة وأسانيدها: صحيح مسلم، كتاب الجنائز ۳: ۶۲؛ والسنن للترمذى ۲: ۲۰۸ ط المكتبة السلفية؛ وصحيح ابن ماجة ۱: ۴۷۳ كتاب الجنائز؛ وصحيح النسائى ۴: ۸۷- ۸۸؛ وسنن أبى داود ۳: ۲۱۶ باب البناء على القبر؛ ومسند أحمد ۳: ۲۹۵ و ۳۳۲، ورواه أيضاً مرسلًا عن جابر: ۳۹۹.

۲- تهذيب التهذيب ۶: ۲- ۴ و ۵- ۶ ط دار المعارف العثمانية.

ص:۷۸

وأمّا الثانی: فإلیک أقوال علماء الرجال فیه:

فعن إمام الحنابلة عن أیوب أنّه کان یعتبر أبا الزبیر ضعیف الروایة.

وعن شعبة: لم یکن فی الدنیا أحبّ إلیّ من رجل یقدِمُ فأسأله عن أبی الزبیر، فقدمت مکّة فسمعت منه، فبینا أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فردّ علیه، فافتری علیه، فقلت: یا أبا الزبیر تفتری علی رجل مسلم؟ قال: إنّه أغضبنی، قلت: ومن یغضبک تفتری علیه؟ لا رویت عنک شیئاً.

وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: ما لَکَ ترکت حدیث أبی الزبیر؟

قال: رأیته یزن ویسترجع فی المیزان.

وقال ابن أبی حاتم: سألت أبی عن أبی الزبیر، فقال: یُکتب ولا یحتجّ به، قال: وسألت أبا زرعة عن أبی الزبیر، فقال: یروی عنه الناسُ، قلت: یُحتجُّ بحدیثه؟ قال: إنّما یحتجّ بحدیث الثّقاة «(۱)».

باللّه علیک، أیصحّ الاستدلال بهذا الحدیث؟ أفهل یصحّ هدم آثار النبوّة والرسالة والصحابة بهذه الروایة؟

علی أنّ بعض الأسانید مشتمل علی عبد الرحمن بن أسود المتّهم بالکذب والوضع.

هذا کلّه ما یتعلّق بالسند.

وأمّا الثانی: أی المتن، ففیه ملاحظتان:

۱- تهذیب التهذیب، ترجمة أبی الزبیر ۹: ۴۴۲ ط حیدر آباد- دکن عام ۱۳۲۶؛ ولاحظ الطبقات الکبری ۵: ۴۸۱.

ص:۷۹

الأُولى: أنّ الحديث روى بصورٍ ست، مع أنّ النبيّ نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلى متونه المبعثرة فى المصادر التى أوعزنا إليها ترى فيها الاضطراب العجيب، وإليكصورها:

۱- نهى رسول اللّه عن تجصيص القبر والاعتماد عليه.

۲- نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله عن الكتابة على القبر.

۳- نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله عن تجصيص القبر، والكتابة والبناء عليه، والمشى عليه.

۴- نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله عن الجلوس على القبر، وتجصيصه، والبناء والكتابة عليه.

۵- نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء عليه.

۶- نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء عليه، والزيارة والكتابة عليه «(۱)».

مضافاً إلى اختلافات أُخرى فى أداة مقصود واحد، فيعبّر عنه تارةً بالاعتماد، وأُخرى بالوطء، وثالثة بالقعود.

ومن المعلوم أنّ الاعتماد غير الوطء، وهما غير القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف فى المضمون لا يمكن لأىّ فقيه أن يعتمد عليه؟!

الثانية: أنّ الحديث على فرضصحّته لا يُثبت سوى ورود النهى

۱- لاحظ فى الوقوف على المتون المختلفة للحديث المصادر التى أوعزنا إليها.

ص:۸۰

من النبى، ولكن النهى منه تحريمى ومنه تنزيهى، وبعبارة أُخرى: نهى تحريم، ونهى كراهة، وقد استعمل النهى فى كلمات الرسول فى القسم الثانى كثيراً، ولأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهة، فترى الترمذى يذكر هذا الحديث فيصحيحه تحت عنوان كراهية تجصيص القبور، والسندى شارحصحيح ابن ماجة ينقل عن الحاكم النيسابورى أنّه لم يعمل بهذا النهى (بالمضمون التحريمى) أحد من المسلمين، بدليل أنّ سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور.

وأمّا الكراهة فربّما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة المترتبة عليه، كما إذاصار البناء على القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلامية، وإظهار المودّة لصاحب القبر الذى فرض اللّه مودّته على الناس «۱»، أو يكون لاستظلال الزائر وتمكّنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إليصاحب القبر، إلى غير ذلك من الأُمور التى يتمكّن الإنسان منها تحت الظلّ لا تحت الشمس ولا فى برد الليل، فالنهى التنزيهى أشبه بالمقتضيات التى ترتفع بأقوى منها.

الثالثة: أحاديث ثلاثة فى الميزان

فقد ورد فى ذلك المجال أحاديث أُخر نذكرها بسندها ومتنها:

روى ابن ماجة فيصحيحه ما يلى:

ص:۸۱

۱- حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا محمد بن عبد اللّه الرقاشى، حدّثنا وهب، حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبى سعيد: أنّ النبىّ نهى أن يُبنى على القبر «(۱)».

ويذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

۲- حدّثنا حسن، حدّثنا ابن لهيعة، حدّثنا يزيد بن أبى حبيب، عن ناعم مولى أُمّ سلمة، عن أُمّ سلمة قالت: نهى رسول اللّهصلى الله عليه و آله أن يُبنى على القبر أو يُجصّص.

۳- علىّ بن اسحاق، حدّثنا عبد اللّه بن لهيعة، حدّثنى بريد بن أبى حبيب، عن ناعم مولى أُمّ سلمة: أنّ النبىّ نهى أن يجصّص قبر أو يبنى عليه أو يجلس عليه «(۲)».

فسند الحديث الأوّل يشمل على (وهب)، وهو مردّد بين سبعة عشر رجلًا، وفيهم الوضّاعون والكذّابون «(۳)».

والحديث الثانى والثالث لا يُحتجّ بهما، لاشتمالهما على «عبد اللّه ابن لهيعة» الذى يقول فيه ابن معين: ضعيف لا يحتجّ به، ونقل الحميدى عن يحيى بن سعيد: أنّه كان لا يراه شيئاً «(۴)».

هذه حال الأحاديث التيصارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمرّ

۱- صحيح ابن ماجة ۱: ۴۷۴.

۲- مسند أحمد ۶: ۲۹۹.

۳- ميزان الاعتدال ۳: ۳۵۰- ۳۵۵.

۴- ميزان الاعتدال ۲: ۴۷۶؛ وتهذيب التهذيب ۱: ۴۴۴.

ص:۸۲

سنة إلّاويدمّر أثر من الآثار الإسلاميّة بحجّة توسيع الحرم الشريف، حتى المكتبات وبيوتات بنى هاشم ومدارسهم، وبيت مضيِّف النبى أبى أيّوب الأنصارى، وفى الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود فى خيبر وغيره، حتى بيت كعب بن الأشرف ذلك اليهودى الذى أهدر دمه رسول اللّه، وقتل بأمره غيلة باسم الحفاظ على الآثار التاريخية.

ثمّ إنّ القاضى ابن بليهد قد أعوزته الحجّة فتمسّك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأنّ البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها.

سبحان اللّه ما أتقنه من برهنة؟ من أين علم أنّ البقيع كانت أرضاً حيّة وقفهاصاحبها على دفن الأموات؟!

ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنّه لم يكن فيها يوم أُعدّت للتدفين أىّ أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب «وفاء الوفا».

آخر ما فى كنانة المستدلّ:

ذكر البخارى فيصحيحه فى باب كراهة اتّخاذ المساجد على القبور الخبر التالى:

لمّا مات الحسن بن الحسن بن على ضربت امرأته القبّة على قبره سنة، ثمّ رفعت، فسمعواصالحاً يقول:

الأهل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا «(۱)».

إنّ هذا الخبر لوصحّ فهو على نقيض المطلوب أدلّ، فهو يدلّ على جواز نصب المظلّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لماصدر من

۱- صحيح البخارى ۲: ۱۱۱ كتاب الجنائز؛ السنن للسنائى ۲: ۱۷۱ كتاب الجنائز.

ص:۸۳

امرأة الحسن بن الحسن عليهما السلام، لأنّه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلّها نصبت تلك القبّة لأجل تلاوة القرآن فى جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه.

وأمّا قول الصالح فهو أشبه بقول غير الصالح، كما أنّ الجواب أيضاً مثله، لأنّه بصدد الشماتة على امرأة افتقدت زوجها وهى مستحقّة للتعزية والتسلية لا الشماتة، لأنّها ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة زوجها إلى الحياة حتى يقال: إنّها يئست، بل كان نصبها للمظلّة للغايات الدينية والأخلاقية، والشامت والمجيب كان من أعداء أهل البيت، والعجب أنّ البخارى ينقله ولا يعلّق عليه شيئاً!

ترى هؤلاء الأغبياء يدمّرون آثار الرسالة وهم يتمسّكون فى ذلك بركام من الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حبّاً لأهل بيت رسول اللّه الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وفرض مودّتهم وولاءهم وقال: «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» (الشورى/ ۲۳).

إلى هنا تبيّن أنّه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهة على حرمة البناء على القبور، وإنّهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درس السلف الصالح.

الحمد للّه ربّ العالمين

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹